المُغالطات

وأثرها في الأمّة

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

المغالطات

وأثرها في الأمّة

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - ه[illegible] [illegible]٠٦٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على رسول الله محمد بن عبد الله خاتم النّبيين وإمام المتّقين وعلى آلـه وصحبه ومن سـار على دربه إلى يوم الدّين *أما بعد* :

فإنّ الإنسان يقوم بأعماله في هذه الحياة الدّنيا حسب دوافع مُعيّنةٍ منها دينية عند أولئك الذّين يُؤثرون رضا الله سبحانه وتعالى ويعملون للآخرة، ومنها مصلحية حسب المصالح، والرّغبات، وهوى النّفس عند أولئك الّذين لا يرون في حياتهم إلّا المتاع واللّهو وقضاء حاجات النّفس.

ولّما كانت المصالح عند بني البشر تختلف، ورغبات النفس تتباين فقد وقع الخلاف ودبّت الفرقة، وحاول المصلحون التّوفيق، وتقريب وجهات النّظر، وتحقيق شيءٍ من مصالح كلّ طرفٍ لإرضاء كلا الجانبين فوجدت أعراف بين النّاس ونقاط اتّفاقٍ فيما يصحّ عمله وما لا يُقبل الإقدام عليه لتأمين سلامة المجتمع وإمكانية العيش بسلامٍ بين الأفراد جميعاً، وأنّ هناك قضايا شخصية للمرء حرّية عملها والتّصرّف فيها وقضايا اجتماعية لا

ينبغي تجاوزها حرصاً على آراء ومصالح بقيّة أعضاء المجتمع.

وجاءت الشّرائع من السماء تُحدّد للنّاس ما ينسجم مع فطرتهم، وهو مُباح لهم عمله، وما لا يتّفق مع طبيعة البشر، وهو حرام عليهم الإقدام عليه، وكانت الشّرائع الأُولى مُخصّصةً للأقوام التي جاءت إليهم، فكان لكلّ قومٍ شريعة خاصّة بهم لا تتعدّاهم لغيرهم من الأقوام، وربّما اعتدى قوم وفسق فعاقبهم الله بحرمانهم من بعض ما أحلّ لهم، لكن لا تلبث رحمة الله وعفوه أن تُصيبهم فيحلّ لهم بعض ما حُرّم عليهم فتكون أكثر من شريعةٍ لقومٍ واحدٍ، كما هي حال بني إسرائيل، الذين جاءهم الأنبياء فعصوا وكانت التّوراة قد حرّمت عليهم بعض الأمور، فجاء الإنجيل ليُحلّ لهم بعض الّذي حُرّم عليهم، ﴿ومُصدّقاً لما بين يدي من التّوراة ولأُحلّ لكم بعض الذّي حُرّم عليكم، وجئتكم بآيةٍ من ربّكم، فاتّقوا الله وأطيعون﴾[1]. وكانت خاتمة الشّرائع ما أُنزل على رسول الله، محمد بن عبد الله ﷺ، خاتم الأنبياء، للنّاس كافةً، ولا يحقّ لمجتمعٍ أن يُطبّق شريعةً سوى الإسلام إذ نسخت ما كان قبلها حيث كل ما جاء قبلها كان خاصّاً بأقوامٍ مُعينين، واختلطت الأقوام بعضها مع بعضٍ، وانقرض كثير من الأقوام السّابقة لذا لم تعُد تصلُح لهم سوى شريعةٍ عامّةٍ للنّاس جميعاً وهذا ما كان شأن

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

خاتمة الشرائع، وقد طبّق المسلمون ما أُنزل على رسول الله ﷺ، مدّةً ثم أخذوا يتخلّون تدريجياً عن حُكمٍ بعد حُكمٍ، وهذا ما جعل أمرهم يضعُف، ودولتهم تزول ويتفرّقون أشتاتاً، ويعمل كلّ فريقٍ حسب هوى المسيطرين عليه.

وأمّا الأُمم الأُخرى التي ادّعت أنّها على شريعةٍ وما هي كذلك إذ حرّف سلفها ما أُنزل إليهم من ربّهم، وبدّلوا كلام الله، وساروا حسب هوى أحبارهم ورُهبانهم، ثم حسب هوى حُكّامهم، فهم ليسوا على شيءٍ، هذا إضافةً إلى أن الشّرائع التي يدّعون أنّهم عليها قد نُسخت، ولم يعُد لها شيء في ميزان الله، فهي مُحرّفة باطلة، ومنسوخة لاغية.

أخذت الأُمم تضع لنفسها قوانين، لاهيةً عن شريعة الله، لتُحقّق بذلك رغبات المُتسلّط الّذي يأمر بهذا وينهى عن هذا، من أجل ذلك كانت هذه القوانين في تغيّرٍ مُستمرٍّ مع تغيّر المُستبدّين، ولأنها لا تُحقّق ما تصبو إليه البشرية. ويحرص واضعو هذه القوانين لتبيان ما هو حقّ وما هو باطل، وما يُؤاخذ عليه الإنسان إذا عمله وما هو حرّ فيه، وكذلك يحرص هؤلاء (المُشرّعون) على أن يكون في هذه القوانين قدر كبير من المرونة وسعة لإمكانية الاجتهاد.

ولّما كان الإنسان يقوم بكثيرٍ من الأحيان ببعض الأعمال سعياً وراء مصلحته أو اتّباعاً لهوى نفسه فإنّ ما يقوم به قد يتناقض مع

الشريعة، وقد يتناقض حتّى مع القوانين الوضعية التي تحدّثنا عنها لذا فهو يحرص أن يجد المُبرّرات للقيام بعمله بتفسير القوانين أو باجتهاداتٍ غالباً ما تكون خاطئةً وقد تُعجزه الحيلة فيلجأ عندها إلى ليّ أعناق القانون ليّاً حتى يكون مُسايراً لما أراد أو حسب هواه، ويعرف أحياناً تصرّفه هذا فيُبرّر لنفسه فعله بأن هذه القوانين وضعية تنسجم مع واضعها. ولكنّه يلجأ إلى الآيات أحياناً أُخرى غير أنّه لا يستطيع أن يقول عنها ما قال عن القوانين، لكن يُريد لنفسه التبرير فيعود ويبدأ بشدّ الآيات وليّ أعناق الأحاديث، وتفسير أحداث السيرة ويجد لعمله مخرجاً وغالباً ما يكون مُخطئاً، ولكنه يُصرّ ويُصرّ، غير أنّ المسلم إذا أصرّ على رأيه على رغم تنبيهه وتحذيره، وقد تبينّ له الحقّ ولكنه كابر، فإنّه قد أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً، ومن فعل ذلك خرج عن الملّة ـ والعياذ بالله ـ وما أعتقد أن يفعل هذا مسلم يُؤمن بالله واليوم الآخر. وإذا أصرّ مُقتنعاً بصواب رأيه وعدم مخالفته فإنه مُخطىء ويكون اجتهاده من نوعِ المغالطات، وما أكثرها ـ مع الأسف ـ في هذه الأيّام. وما أعتقد أنّ هذا يقع من قبل فردٍ مُسلمٍ لأنّه مُلزم أن يأخذ برأي الجماعة، ويعود إلى الصواب. أمّا عندما يقع من جماعةٍ فهو الأمر الخطير، وذلك لأنّ الفرد العادي يقول: هذا رأي الجماعة وفي الجماعة علماء، فيتعصّب للرأي وتنشأ العصبية للجماعة كالعمل الحزبي تماماً، ويصبح الخطأ خطأين خطأ في الرّأي وخطأ في السّلوك، وتتفرّق الأُمّة إلى جماعاتٍ

كـلّ منها يحمـل رأياً يُخـالف الأخرى ويتعصّب لـه أتباعـه. ويكون الإثم على المفارق للجماعة والمبدّل لكلام الله وسنة رسوله باجتهـاده الخاطىء النّابع من هواه.

ومن الأمـور الخـطيرة في أُمّتنـا اليـوم أولئـك الّـذين يُقـدّمـون اجتهـاداتٍ خاطئـةً أو يشدّون الآيـات والأحاديث وسـيرة الـرّسـول الكريم لتتّفق مع ما يُريده ظالم أو ما يرغبه طاغية من أجل عرضٍ من أعراض الدّنيا كمنصبٍ أو مالٍ أو حظوةٍ عند سلطانٍ.

ومـع الصحوة الإسـلامية في عـالمنا الإسـلامي الكبير ومـع إقبال الشّبـاب على التّمسّـك بالإسـلام على رغم المغـريات الكثـيرة فـإنّ أعـداداً من الشّباب وعـدداً من الحركـات قد بيّنت للنّـاس الطريق وأنـارت الدرب وقـامت تُنادي بفكـرها وتـدعو إلى تـطبيق الإسلام وترك كلّ ما يُخالفه من قوانين وضعيةٍ ونبذ كثيرٍ من العـادات التي لا يـرضى عنها الإسـلام من سفورٍ، واختـلاطٍ، وتـرفٍ، وإخـلادٍ إلى الأرض غير أن هذا لا يُرضي المترفين في الأرض فيقفـون بسلطانهم، وبمالهم، وبقوتهم في وجـه هذا التيّـار الإسلاميّ وفي وجـه أصحاب هـذه الصّحـوة الإسـلاميّـة، ويُحـاولـون ردّهم عن طـريقهم بكـلّ الـطّرق، ولكن لا يستطيعـون فيلجؤون إلى بعض من يحمل صفـة العلم يستنجدون به ضدّ الحركة الإسلامية فيُعطي الصّفـة الشّرعية للقائمين بالأمر، وأنّ مُخالفتهم غير جائزةٍ، وأنّهم يُطبّقون ما أمر الله به، ولذا فـإن مُخالفيهم مـارقون خـارجون عن الجـادة، وهؤلاء من

أشباه العلماء لا يستطيعون إصدار هذا إلّا بعد مُغالطاتٍ وتفسير خاطىءٍ للآيات أو الأحاديث أو أحداث السّيرة، أو سيرة الخلفاء الراشدين.

هذه المغالطات على اختلافها ومن أيّة جهةٍ جاءت قد أضرّت بالأُمّة ضرراً بالغاً إذ حرّفت الحقائق، وزوّرت الأحداث، وغيّرت المفاهيم، وبدّلت تاريخ الأُمّة وتلاعبت في أمور العقيدة من أجل هذا كان واجباً علينا تبيان بعضٍ هذه المغالطات وتوضيح أهمها وخاصّةً ما كان له علاقة بعقيدة الأُمّة.

نسأل الله التّوفيق وسداد الخُطا، فهو نعم المولى ونعم النّصير، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.



دار الإسلام

من المعلوم أنّ العالم بالنسبة إلى المسلمين ينقسم إلى قسمين:

١ ـ دار الإسلام:

وهي الدّولة التي تحكم بما أنزل الله بغضّ النّظر عن نسبة المسلمين بين سكانها سواء أكانت مُرتفعةً أم قليلة. فالأهمية لنظام الحكم لا إلى الأفراد.

٢ ـ دار الكفر:

هي الدولة التي تحكم بغير ما أنزل الله دون النّظر إلى أعداد المسلمين الّذين يعيشون في كنف هذه الدولة، وإلى المعاملة التي يُعاملون بها من قبل الحكام، ومن المعروف أنه قد يعيش مسلمون في ظلّ دولة الكفر، فإمّا أن يكونوا قد أسلموا حديثاً، وإمّا أنّهم لم يستطيعوا الخروج، وإمّا أن تكون دولتهم قد تركت منهج الله وأخذت بمبادىء تُخالف الإسلام. وبهذا فإنّ نسبتهم تختلف فقد يكونون أكثريةً أو أقلّيةً، وعلى كلّ حالٍ فإنهم إن كانوا يستطيعون ممارسة شعائرهم بكل حريةٍ فهم مُخيّرون بين البقاء والانتقال، وإن رأوا أنه يمكنهم التأثير على غيرهم بالدعوة ومسموح لهم بها فإن

مُقامهم أفضل، أمّا إن كانوا لا يستطيعون تأدية شعائرهم وبالتالي لا يسمح لهم بالدعوة فإنّ هجرتهم واجبة. ودار الكفر نوعان.

أ ـ دار الحرب: وهي التي تقوم بينها وبين المسلمين الحرب، ويجب على المسلمين الذين يعيشون في هذه الدول أن يدعموا المسلمين ويُؤيّدوهم بكل قوّة حتى يتمّ لهم النصر، إن كانوا قادرين، لأنه إن لم يحصل المسلمون على النصر فإن الكفّار سينتقمون من المسلمين الذين يعيشون في ظلّ دولتهم، لأنهم يعدّون دعمهم للمسلمين غدراً وخيانةً للوطن حسب المصطلحات التي لا تقوم على مفهومٍ دينيٍ صحيحٍ ، لذا فقبل أن ينال المسلمين أذىً عليهم مُغادرة ديارهم والألتحاق بإخوانهم المسلمين، وكذا إن لم يكونوا قادرين.

ب ـ دار السلم: وهي التي يقوم بينها وبين المسلمين ميثاق، أي أنها دول كافرة، ولكنها ليست في حالة حربٍ مع المسلمين، وفي الوقت نفسه فهي لا تضغط على من يعيش فيها من المسلمين بل وتفسح المجال لهم بالدعوة ولهذا فالمسلمون لا يُحاربونها وارتبطوا معها بميثاق.

ولا ينطبق هذا التقسيم إلاّ عندما تقوم دولة الإسلام، إذ يترتّب على قيام دار الكفر وما يتبعها من دار الحرب، ودار السلم قيام دار الإسلام، ففي الوقت الذي لا تكون دار الإسلام قائمةً لا تكون هناك دار للكفر أو دار الحرب كما هي حال مكّة قبل قيام دولة

الإسلام في المدينة إذ ليست دار كفرٍ حيث المسلمون يعيشون فيها ولا يوجد دار أخرى فيها مسلمون اللّهم إلا إذا استثنينا المهاجرين في الحبشة وبعض الذين أسلموا من أشعريي اليمن أو من دوسٍ ، والذين اعتنقوا الإسلام في المدينة بعد بيعة العقبة، وفي الوقت نفسه فهي ليست دار إسلامٍ إذ أنّ الجاهلية هي المسيطرة فيها والمتحكّمة في شؤونها، وكذلك الحال عندما ينعدم قيام دولةٍ للإسلام على الأرض كالوقت الذي نعيش فيه الآن، إذ لا نستطيع أن نعدّ مصراً من الأمصار الإسلامية اليوم دار إسلامٍ ما دام الإسلام لا يُطبّق فيه بشكلٍ كاملٍ وصحيحٍ ، كما أنّ أكثر القوانين المعمول بها مُخالفة لمنهج الله وإن لم يكن بشكلٍ صريحٍ وصارخٍ فهي بشكلٍ مُستترٍ، وكذلك فالمخالفات غير القانونية كثيرة كالسفور الذي استشرى في الناس، والاختلاط الذي عمّ المجتمع أو كاد، والربا الذي يحمل اسم الفائدة، مع أنه قد أفتى عدد من الذين يعدّون أنفسهم علماء بعدم حرمة هذا ما دامت المصارف قد أصبحت مُؤسّساتٍ استثماريةً، هذا إضافةً إلى عدم إقامة الحدود على شارب الخمر وقد كثر معاقروها اليوم، وعلى الزنا وقد انتشر، بل أصبح كثير من الدول يرعون ما يسمّونه أهل الفنّ وتحت هذا الاسم ترتكب المخالفات، ويكثر الفساد. وفي الوقت نفسه لا نستطيع أن نُطلق على مثل هذه الأمصار «دار كفر» لأنه لا تقوم دار للإسلام أولاً ، وثانياً كثيراً ما تدّعي هذه الأمصار أنها مسلمة تعمل

على تطبيق الإسلام، وهذا لا ينطبق عليها جميعاً وإنما على بعضها، ولا نُنكر عليها بل نُشجّعها ونُطالبها بتحقيق ما تُنادي به. ولكن يمكن أن نقول عن كثيرٍ من الأمصار الإسلامية إنها جاهلية النظام، جاهلية المجتمع.

غير أن الكثير من هذه الأمصار ما يسوءه أن يُطلق عليه «دار كفرٍ» أو «جاهلية» وخاصةً من قبل الحركات الإسلامية التي تُعادي الأنظمة لهذا السبب، وتُعاديها الأنظمة حرصاً على مصالحها والتمسّك بالحكم، وعند كلّ خلافٍ أو عند كلّ صدامٍ بين الأنظمة القائمة والحركات الإسلامية يُريد المسؤولون أن يُدافعوا عن أنفسهم أمام الشعب، ويتّهموا خصومهم بإثارة الفتنة، ويردّوا عليهم بالتهمّة نفسها التي يُوجّهونها إليهم، وأفضل السُّبل لهذا استدعاء عددٍ ممن يدّعي العلم، أو هكذا يُنظر إليهم، ويطلبون منهم الردّ على أعدائهم بأنّ المسؤولين مسلمون، وأنّ الأنظمة ليس فيها ما يُخالف الشر، ويقبل هؤلاء من أنصاف أهل العلم رغبةً أو رهبةً، تقرُّباً وزُلفى من المسؤولين، أو وراء مصلحةٍ يبغونها من جاهٍ أو منصبٍ أو مالٍ، أو كيداً للحركات الإسلامية وعُدواناً لها أو مُنافسةً لَها ـ حسب زعمهم ـ فيدّعون أن البلاد مسلمة، وليس في قوانينها ما يُخالف الإسلام، وأن الشعب مسلم، ويُؤدّي عباداته، والأذان يرتفع كلّ وقت، لقد رأوا هذا كلّه، وهو صحيح، ولكنهم لم يروا أو تعاموا عن المحارم التي تنتهك فلم يروا الخمر وبيعها

علناً، ولم يروا السفور في الطرقات، ولم يسمعوا بالاختلاط إن لم يشاهدوه بأنفسهم، ولم يسمعوا بالربا، ولم يعلموا شيئاً عن المفاسد، وعن الخلاعة، وعن محاربة الله ورسوله علناً في الكتب والمجلات والدعوة إلى الإلحاد. . . . فهل هذا من الإسلام يا سادة العلم؟.

وتبدأ الفتاوى الضالة وتبدأ المُغالطات، فيقولون: قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم»، والناس كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، فكيف نقول عنهم: جاهليون، أو كفرة. . . . يا الله! كأنهم لم يعتبروا من التاريخ، ولم يأخذوا دروساً ومواعظ من السلف، وكأنّهم لم يسمعوا ما دار بين أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وبين بعض الصحابة، وهم الذين يدّعون العلم.

جاء أقوام من الأعراب إلى الصديق، رضي الله عنه، وقالوا: يا أبا بكرٍ إنّا نؤمن بالله ورسوله، ونُقيم الصلاة، ولكن نرجو أن تعفينا من الزكاة، فإنما هي أموالنا ـ وقد أحسّوا أنهم يدفعونها كضريبة ـ فقال لهم: إن الزكاة كالصلاة واجبة عليكم، وعليكم أن تدفعوها، وأصرّ على ذلك، ولكنهم قالوا: إنما هي ضريبة ندفعها لقريشٍ فوالله لن ندفعها أبداً، فقرّر قتالهم، فقال بعض الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب: يا خليفة رسول الله، كيف نُقاتلهم،

ورسول الله ﷺ يقول: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم» فقال رضي الله عنه: حتى يقولوها بحقّها ومن حقّها تأدية الزكاة، والله لأُقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة. وقاتلهم، رضي الله عنه، وانتصر عليهم وألزمهم تأدية الزكاة.

أليس من حقّ «لا إله إلا الله» تحريم الربا، وتحريم الخمر، وتأدية الزكاة، ومنع السفور، ومنع الاختلاط، ومعاقبة الذين يتهجّمون على الإسلام، وإقامة الحدود؟ ألا يُقاتل هؤلاء جميعاً؟ نعم، لا يُقاتل هؤلاء كأفراد إذ ليس لهم من الأمر شيء وإنما يُقاتل المسؤول الذي لا يحملهم على هذا كرهاً إن امتنعوا.

الإسلام ليس عدوّاً لأحدٍ ولا يُحارب فرداً بعينه، وإنما يُحارب الذين يظلمون الناس ويحولون دون تطبيق منهج الله في الأرض، ولا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. الإسلام ليس عدوّاً لفرعون كشخص يُدعى «فرعون» وإنما هو عدوّ لفرعون الطاغية، فرعون المتجبر في الأرض، الذي يقول: «أنا ربكم الأعلى» فرعون الذي يقف في وجه الدعوة ويحول دون الإيمان بالله، فرعون الذي يُعاقب الذين يُؤمنون بالله أشدّ العقاب، وقد هدّد السحرة الذين آمنوا بعد أن تبيّن لهم الحقّ بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب في جذوع النخل، والإسلام عدوّ للنظام الذي لا يُطبّق شرع الله بحقٍّ، ويُحارب من يُمثّل هذا النظام، وأما الشعب

فلا وزر عليه إلاّ السكوت على الباطل، فإن كان مغلوباً على أمره فإن الإسلام يُخلّصه من الظالم له، ويُنبّه المجتمع إلى ضرورة قول الحقّ وعدم السكوت على الباطل، وعدم الخوف في الله من أي مخلوقٍ، أو أيّة سلطةٍ، وإن كان راضياً بما يُسير عليه المجرمون فيُقاتل مع المجرمين حتى يرجع إلى الحق، ويُعرّف طريق الصواب والاستقامة.

هل يرى هؤلاء الذين يتكلّمون بغير علمٍ أن كلّ ما في أمصار العالم الإسلامي من أنظمةٍ تُوافق تماماً منهج الله؟ وهل يرون أن ما في المجتمعات من عاداتٍ وتصرّفاتٍ وسلوكٍ ينسجم تماماً مع الإسلام؟ وهل يرون في مُمثّلي الأنظمة قدوةً حسنةً لشعوبهم المسلمة؟ وهل يرون أنّ الشعوب راضية كلّ الرضا بما يحدث وليس هناك من مغلوبٍ على أمره؟.

إنهم لا يرون ذلك لا بأعينهم ولا بقلوبهم، ولكنهم يُريدون المغالطات وتحريف الكلام عن مواضعه تقرّباً وإرضاءً لصاحب سلطةٍ، ورغبةً في الحصول على بعض المنافع، وربما يرون ذلك قراءةً لما في أنفسهم أو لكثرة ما يُفتون، أولئك الذين أضلّهم الله، والذين في قلوبهم مرض يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ويظنّون أنهم يُغالطون على الناس، وفي الحقيقة إنما يُغالطون أنفسهم، ويُسيئون إلى أشخاصهم ويكتبون بأيديهم على أنفسهم الشقاوة. ﴿ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من

لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب﴾.

لقد ذهب كثير من الشباب المخلصين المؤمنين ضحيةً لفتوى من بعض هؤلاء الذين يدّعون العلم، وحُكم على جماعاتٍ بالفتنة والمروق، وهي على حقٍّ بسبب أقوال أمثال هؤلاء من علماء السوء الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً.

وقد فكّرت بعض الجهات بغسل أدمغة هؤلاء الشباب الناشئين على الإيمان، وقد رأت هذه الجهة أن تُكلّف بهم لهذه الغاية بعض علماء السوء للحوار معهم ومُناقشتهم، وقد أبدى عدد من العلماء استعدادهم وقدرتهم على ذلك، غير أن المحنّكين منهم الذين مارسوا التجربة، ويعرفون واقع هؤلاء الشباب، فلم يُقحموا أنفسهم في هذا الميدان، وبقوا بعيدين عن الساحة ينتظرون النتائج، ويتفرّجون على الوقائع، وإن كانوا في غيّهم سادرين يقولون الباطل، ويُفتون بالضلالة، ولكن تحمّس علماء السوء الجُدد الذين يُريدون الظهور والمركز، والجاه والمنصب، وإبداء القدرة العلمية. وبدأت الجلسات وظهر عجز أهل السوء وبدا الحق وهُزم الباطل وغدا الشباب علماء، والعلماء مُستمعين فآيات الله واضحة، والحقّ أبلج، ولكن بقي كلّ على رأيه، ويعمل بفكره، لأن الحقّ عند أهل الهوى مرّ إذ الرفعة محبوبة إلى قلوبهم ولو كانت لا تأتي إلاّ من باطلٍ، ولا تتمّ إلا من ضلالة.

اللّهم جنّبنا الزلل في القول والعمل.

أحلاف الضعف والارتباط

ما كان الإسلام في يومٍ من الأيّام ليستعين بالباطل لنصرته، ولا بأعداء الله لرفع كلمته، ولا بالظالمين لرفعته، فالإيمان لا يرتفع إلا بالحقّ، ولا تقوم دولته إلا على أيدي أبنائه الصادقين بدعوته، المُخلصين لله.

ولم يُفكّر رسول الله ﷺ في أوّل أمره وقد وجد أنّ قريشاً قد نابذته العداء ووقفت في وجه دعوته، وحالت بينه وبين الناس، لم يُفكّر أبداً في أن يستفيد من الخلافات القائمة بين القبائل، ولا من العداوات الناشئة بين المدن، ولا من المنافسات الموجودة بين الرجال لينهض بدعوته ويُنشىء دولته، وإنما انكفأ على نفسه مع المؤمنين الذين صدّقوه يُعلّمهم، ويدعو سرّاً، وتحمّل وتحمّلوا، وصبر وصبروا، وضحّى وضحّوا حتى أيّد الله دينه ونصر عبده.

لم يُفكّر رسول الله ﷺ أن يُثير بني عبد مناف وهو منهم على غيرهم من البطون القرشية، وينتصر بهم، وينشر دعوته بين بني عبد منافٍ، من بني هاشم، والمطلب، ونوفل، وعبد شمس.

ولم يُفكّر أبداً أن يُثير عمّه أبا لهب عبد العزى بن عبد المطلب

على الوليد بن المغيرة المخزوميّ أو على أُميّة بن خلفٍ ورؤوس الكفر الأخرى، وينتصر بأبي لهبٍ ويسمو بين عشيرته الأقربين.

ولم يخطر على باله أن يلجأ إلى بعض القبائل التي بينها وبين قريشٍ عداوات أو ثارات، ويُجمّع القبائل ويغزو قريشاً ويُلزمها أن تدين له وتخضع بعد أن ذاق منها وأصحابه ما ذاقوا من العذاب والأذى.

ولم يخطر على باله أن ينتقل إلى يثرب وهي كمكّة على الكفر، ويبعث الخلاف ويُقاتل مشركين بمشركين، ولكنه انتقل إلى يثرب، وقد غدا اسمها «المدينة»، لما أسلم بعض أهلها وقاتل بهم مُشركيها ومُشركي أُمّ القرى حتى نصره الله وأقام دولة الإسلام، وحطّم الأصنام وأذلّ الشرك.

إن الإسلام دعوة مُتميزة لا تقبل الانتصار بالشرك أو بالكفر، وأعداء الله من مُشركين وكفّار بعضهم أولياء بعض ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولّهم منكم فإنه منهم، إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[1].

وفي الجاهلية كانت هناك أحلاف بين الأوس وبين بني قريظة من يهود، كما كانت بين الخزرج وبين بني قينقاع وبني النضير من يهود،

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

فلما جاء الإسلام قضى على هذه الأحلاف، وقطع تلك الأواصر فكان المسلمون أُمّةً واحدةً من مهاجرين، وأوسٍ، وخزرجٍ، وآخرين من القبائل الأخرى تجمعهم كلهم رابطة الإسلام، وتربطهم جميعاً «لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله». ولما كان الخروج إلى أُحُدٍ، قال أحد الأنصار: ألا نستنصر بموالينا من يهود، فقال رسول الله ﷺ: «لا ننتصر بكافرٍ على مشركٍ».

يمكن أن يكون بين المسلمين وغيرهم موادعة أي لا يخون أحدهم الآخر، ولا يعتدي بعضهم على بعض، وقد وادع رسول الله ﷺ اليهود في المدينة ليكون أهل المدينة جميعاً ضدّ من تسوّل له نفسه بغزو المدينة، وحتى لا يأتي الأعداء من خارج المدينة، ويعتمدوا على اليهود ويكون المسلمون بين شقي الرحى الأعداء من الخارج واليهود من الداخل. وهذا ما حدث في غزوة الخندق، فعندما رجع الأحزاب عن المدينة عُدّ اتّفاق اليهود مع الأحزاب خيانةً للمسلمين، وساروا إليهم وأوقعوا فيهم تلك الوقعة المعروفة بـ «غزوة بني قريظة».

وكذلك عندما خان بنو قينقاع من يهود المسلمين بعد معركة بدرٍ أُخرج بنو قينقاع من المدينة، ورُحّلوا عنها فساروا إلى خيبر، ووادي القرى، والشام.

ولّما خان بنو النضير المسلمين بعد معركة أُحدٍ أُخرجوا من

المدينة، وأُجلوا عنها فانطلقوا إلى خيبر، ووادي القرى، والشام.

وهذا يدلّ على أن الموادعة يمكن أن تكون بين المسلمين وغيرهم، ولكن ليس يعني أن المسلمين كانوا ضعفاء فوادعوا من هم أقوى منهم، واتّفقوا مع أقوياء يستمدّون منهم النصر، ويأخذون منهم النجدة والدعم والسلاح. يُوادع المسلمون غيرهم حتى يقووا هم بأنفسهم لا بغيرهم، لا يرتمون بديار سواهم ويعيشون في كنفهم، ثم يقولون: نُحالفهم، وعندما وادع رسول الله ﷺ اليهود كان هو القوي، والمسلمون هم الأعلى، وفي الساعة التي يرون اليهود يُريدون التلاعُب، أو يبدو منهم الغدر، أو تظهر منهم الخيانة يمكنهم أن يتصرّفوا بهم كما يشاؤون، وقد لاحظنا أنهم أجلوا بني قينقاع، ورحّلوا بني النضير، وأوقعوا ببني قريظة، ويهود لا يستطيعون فعل شيءٍ، فالمسلمون هم الأقوياء وخصومهم هم الضعفاء، المسلمون لا يخونون ولا يغدرون، أما أعداؤهم فإن فكّروا بهذا فإن المسلمين قادرون على كل تصرّفٍ.

ويمكن أن يكون بين المسلمين وغيرهم ميثاق أي أن يكون اتّفاق بين الطرفين ألّا يحدث بينهم قتال، وهذا ما رأيناه في دار السلم. وهذا ما حدث في صلح الحديبية إذ كان من شروط ذلك الصلح أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين، وهذا لا يعني أن أحدهما رَكَن إلى الآخر، وإنما بقي كل جانبٍ يأخذ حذره من الآخر خوف الغدر، ويستمرّ في استعداده خوفاً من اللقاء المرتقب بين الجهتين،

والمسلمون لا يغدرون ولا يخونون ومطلوب منهم أن يتمّوا الميثاق إلى مدته ﴿إلّا الذين عاهدتم من المشركين ثمّ لم ينقصوكم شيئاً ولم يُظاهروا عليكم أحداً فأتمّوا إليهم عهدهم إلى مدتهم، إنّ الله يُحبّ المتقين﴾[1].

ويمكن أن يكون هناك اتّفاق بين المسلمين وغيرهم على عمل شيءٍ أو قيام أحدهما بدعم الآخر، فالمسلمون وهم يتقدّمون فاتحين في بلاد العراق وقد ظهرت قوّتهم وبدا تفوّقهم طمع في التقرّب منهم بعض القبائل التي كانت تُقيم هناك من غير الفرس، ومنها قبائل عربية، كان من بينها بنو تغلب وكانوا على النصرانية يُخالفون المجوسية دين الفرس فعرضوا على المسلمين مساعدتهم في القتال فوافقهم المسلمون على أن يُقاتلوا وحدهم كي لا يدخلوا وسط المسلمين ويمكنهم عمل شيءٍ فيما إذا كانوا يُفكّرون بغدرٍ أو خيانةٍ. وقد غالط أناس كثيرون في هذه الحادثة فبعضهم قال وهم أصحاب العصبية القومية: إنّ بني تغلب قد انحازوا إلى جانب المسلمين بحكم الرابطة القومية التي تجمع بينهم، وبعضهم قال وهم أهل التأويل الذين يُريدون أن يُفسّروا كلّ حادثةٍ بما تشتهي أنفسهم وبما يتّفق وما يقومون به: إن المسلمين يحقّ لهم التحالف مع غيرهم لمصلحة يرونها أو عندما لا يستطيعون أن يُؤدّوا عملاً يضطرون إلى

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤.

القيام به، والـواقع أنـه لا هذا ولا ذاك، فـإنّ بني تغلب قد طلبـوا مُساعدة المسلمين رغبةً في الحصـول على الغُنم ولم يُفكّـروا بالـرابطة القومية أبداً، وقد كانوا قبل مجيء المسلمين يعملون لحساب الفرس ولا تجمع بينهما قـومية بـل إنهما من جنسين مختلفـين، ويعملون ضدّ الروم وهم أبناء عقيدةٍ واحدةٍ، فلم تكن لـديهم إذن عصبية لقـومٍ ولا قيمـة لعقيدةٍ وإنّمـا همّهم الغُنم والحصول عـلى السلب والنهب، وهذا ما دفعهم لطلب مُساعدة المسلمين والقتـال بجانبهم مـا داموا يُمثّلون الجانب الأقوى في ساحة قتال المنطقة التي يعيشون فيها، وقد كان بنو تغلب بجانب الفرس عندما توسّع سلطانهم، ودانوا بعقيدة الروم عندما بدا تفـوّقهم على الفـرس. هذا من جـانبٍ ومن جانبٍ آخـر فإن المسلمـين قبلوا منهم المسـاعـدة ضمن شروطٍ وهي عـدم القتال في خندقٍ واحدٍ حتى يكون هنـاك تميّز ويمكن ضربهم فيـما إذا فكّـروا بخيانـةٍ أو غدرٍ، بـل لا يمكنهم ذلك مـا داموا ليسـوا داخل صفوف المسلمين فلو دخلوا صفوف المسلمين لأمكنهم القيام بعملٍ يُضعضع الجبهة الإسلامية، ونقـطة أخرى يجب الانتبـاه إليها وهي أن المسلمـين هم الـذين أملوا شروطهم فهم الأقـوى وهم الـذين يتحكّمـون في الاتّفاق أو بيـدهم تنفيذه فـإن أعجبهم استمرّوا فيـه وإن لم يرق لهم تركوه، ولما كـان المسلمون لا يخونون ولا يغـدرون فلا يمكن أن يأتي ضرر من جانبهم وإذا أرادت بنو تغلب الخيـانة لم تستطع لأنه ليس بيـدها شيء وهي الضعيفـة، كما يجب الانتبـاه إلى

ملاحظةٍ ثانيةٍ وهي أن دخول بني تغلب القتال بجانب المسلمين لم يُغيِّر شيئاً من مجريات الأحداث فالمسلمون هم الذين يُسيطرون على الساحة، ولم يقف أمامهم جيش لعدوٍّ، ومعنوياتهم مُرتفعةً جداً بسبب الروح الإيمانية العالية، وتزداد ارتفاعاً نتيجة الانتصارات المتتابعة التي يُحرزونها في المعارك المتلاحقة على حين أن الأعداء يعيشون في رعبٍ مخيفٍ وتنخفض معنوياتهم باستمرارٍ بسبب الهزائم التي تلحق بهم، ولذا فإن مساعدة بني تغلب للمسلمين لا قيمة لها بل بحكم المعدومة، ولكن المسلمين وافقوا على هذه المساعدة في سبيل تقريب بني تغلب من المسلمين للتعرّف عن قربٍ على سلوكهم وعبادتهم وجهادهم علّهم يُؤمنون ويكونون قوّةً للمسلمين في المستقبل، وينجون من النار فمن صفات المسلمين حبّ الخير للناس جميعاً، ومن أهداف دعوتهم إخراج الناس من الظلمات إلى النور في الدنيا،وفي الآخرة بنجاتهم. فالمسلمون إذن يمكنهم الاتفاق مع غيرهم بشرطٍ هو أن يكون المسلمون هم الأقوى، وبيدهم الحركة، ويُملون شروطهم حيث لا يستطيع الآخرون أن يضربوا المسلمين، أو يغدروا بهم، أو إذا تخلّوا عنهم فلن يضرّوهم شيئاً ولن يصبحوا بين أنياب الأعداء، وهذه هي الأحلاف بين المسلمين وغيرهم، أو الاتفاقات.

وعندما كان المسلمون يتقدّمون في شمالي بلاد الشام التقوا بمجموعةٍ تُدعى الجُراجمة نسبةً إلى بلدة «جُرجومة» في جبال

الأمانوس على مقربةٍ من إنطاكية، أو هي نُسبت إليهم، وهم مجموعة من القدماء، يسكنون تلك الجبال والآكام المنيعة يتّخذونها حصناً ويُغيرون منها على الجهات المجاورة لهم، ويفرضون سيطرتهم على فجاجها وممراتها الضيقة والقليلة، ويأخذون الأتاوة من القوافل التي تضطّر إلى عبورها، ويقطعون السبيل. فلما جاء الرومان إلى المنطقة دان الجُراجمة لهم، وخنعوا أمامهم، فلما ظهر المسلمون على الساحة بقوّةٍ، وطردوا الروم من بلاد الشام، وأصبحت بلاد الجُراجمة في المناطق الفاصلة بين الجانبين تقدّم الجُراجمة إلى المسلمين وطلبوا منهم القتال بجانبهم ما دام المسلمون أصحاب القوّة المرهوبة الجانب فوافق أبو عبيدة، رضي الله عنه، ولكن اشترط على الجُراجمة شروطاً وهي أن يُقاتلوا مُتميّزين، وذلك حذراً منهم من الخيانة والغدر، وهي الشروط نفسها التي اشترطها المسلمون في بلاد العراق مع بني تغلب، وقاتل الجُراجمة الرّوم، وانحازوا إلى صفّ المسلمين، وبقوا هكذا حتى عندما اضطر أبو عبيدة للعودة إلى جنوبي بلاد الشام لحصار بيت المقدس، وتُوفّي أبو عبيدة في طاعون عُمواس، وتولّى إمرة الشام يزيد بن أبي سفيان ثم تُوفّي في حادث الطاعون نفسه، وانتقلت الإمرة إلى أخيه مُعاوية بن أبي سفيان، واستمرّ الجُراجمة على شروطهم حتّى ظهرت الفتنة فتنة ابن السوداء في صفوف المسلمين والتقى الصحابة بعضهم على بعضٍ فشعر الجُراجمة بضعف المسلمين فراسلوا الروم وتعاطفوا معهم،

حتى عادت للمسلمين القـوّة فرجعـوا إلى المسلمين وأظهـروا ندمهم على ما حدث من بعضهم وتكررت عمليتهم هـذه عدّة مـرّاتٍ حتى ضربهم المسلمون ضربةً قويةً جعلتهم يخنعـون ويظهـرون الإسلام، ولكنهم لم يُسلمـوا، وبقوا عـلى مكرهم وخـداعهم مدّةً، وأصبحت ديارهم وأماكنهم مأوىً لكل أصحـاب الفِكر الهـدّامة من الخـارجين عـلى الإسلام إذ التجـأ إليهم محمـد بن نصـير ونشر أفكـاره بينهم، وانتقلت إليهم فُلول القـرامـطة المُـطاردون واستقـرّ عنــدهم بعض الصليبيين ومن هؤلاء جميعاً نشأت فرقة «النصيرية» المعروفة.

لم يعتنق الجُراجمة النصرانية ديانة الروم وإنمـا خضعوا لهم نتيجـة القـوة، ولم يعتنقوا الإسـلام ديانـة الفاتحـين الجُـدد، وإنّمـا أظهـروا الإسلام بسبب قوّة أصحابه، وفي كلا الحالتـين لم يُقاتلوا دفـاعاً عن الـروم ولا حبّاً في المسلمـين وإنما من أجـل الغنيمة ليس إلاّ. ولكن المسلمين كانوا على حذرٍ منهم منذ البداية، ولم يسمحوا لهم بالقتـال بين صفوفهم وإنما مُنفردين. لم يتّفق المسلمون مع الجُراجمة إلا وهم الأقوى، والجُراجمة يلحقون بالمسلمين ويتبعونهم ويأتمرون بأمـرهم، أَغـيروا أو لا تُغيروا، تقـدّموا أو تـوقّفـوا، أعـطوا أو امنعـوا. اتّفق المسلمون مع الجُـراجمة وقـد فرضـوا شروطهم ما دامـوا هم الأقوى ولهم اليد الطولى، فإن وفّوا فالمسلمون عنـد شروطهم، وإن غدروا أو خـانوا نـالوا جـزاء خيـانتهم وغـدرهم، ولمّـا رأى المسلمـون أن الجُراجمة لا يُؤمن جـانبهم وأنهم يسيرون وراء مصلحتهم ضربـوهم

وألزموهم الخنوع، فلو كان الجُراجمة هم الأقوى ما استطاع المسلمون عمل شيءٍ بل فُرضت عليهم الشروط، وأصبحوا تبعاً للجُراجمة أو الروم بل من بداية الطريق طعن الجُراجمة المسلمين من الخلف وسلّموهم للروم سبياً.

هذه الاتفاقات وهذه الأحلاف التي عقدها المسلمون أيّام رسول الله ﷺ، وأيّام خلفائه الراشدين مع غير المسلمين وهكذا كانت أيّام قوة المسلمين في كلّ عصورهم ومراحل حياتهم، وتنطلق من نقطتين اثنتين:

١ ـ المسلمون هم الطرف الأقوى، ولا يعقد المسلمون حلفاً أو اتفاقاً أبداً وهم الجانب الأضعف كي لا يكونوا تبعاً لغيرهم، وقُوّةً مُلحقةً بجماعةٍ أخرى.

٢ ـ يُملون شروطهم على الآخرين ما داموا هم الأقوى ويلتزمون بشروطهم، ويُراقبون حليفهم فإن بدر منه شيء يُخالف الشروط أو يُسيء للمسلمين أدّبوه.

ويُريد بعض المسلمين اليوم أن يُغالطوا تبريراً لمواقفهم أو اجتهاداً خاطئاً فيدّعون أنّه يحقُّ للمسلمين التّحالف مع غيرهم، ويقفون عند هذا الكلام ويسكتون عن جانب القوّة لينطبق مع ما يُريدون تحقيقه أو مع ما يقرؤون في نفوسهم، ويُتابعون اجتهادهم فقد وادع رسول الله ﷺ يهود، واتّفق المسلمون أيام عمر بن

الخطاب مع بني تغلب في العراق ومع الجُراجمة في الشام، ونحن يحقّ لنا الاتفاق والتحالف مع من نشاء.

إن كلامهم هذا صحيح ولكنّه ناقص مبتور إذ لم ينظروا إلى القوة وجانب الشروط، كالذي يقرأ شطراً من الآية ويترك الشطر الآخر ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فيقرأ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة﴾ ويترك ﴿وأنتم سكارى﴾.

وقد عقدوا التحالف مع غير المسلمين بناءً على مُغالطاتهم هذه، وكانوا الجانب الأضعف فأصبحوا تبعاً لغيرهم ومجموعةً ملحقةً بسواهم فأذلّوا بذلك المسلمين وزادوهم ضعفاً إلى ضعفهم، ثم لحق بهم أتباعهم فأيّدوهم من غير تفكيرٍ وتبعوهم دون استعمال عقلٍ، فوضعوا المسلمين في آخر الركب، واستعلى عليهم من كان دونهم، وتجرّأ عليهم من كان لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.



استعمال العقل

لقد خلق الله الإنسان وميزّه عن سائر المخلوقات بالعقل، وكرّمه عما سواه بالتفكير. وجاء الإسلام فحضّنا على استعمال العقل، وحثّنا على التفكير الدائم في كلّ شيءٍ. وجعل الله كلّ إنسانٍ مسؤولاً عن عمله مُحاسباً عن فعله بما يهديه إليه عقله وبما يُوجّهه إليه تفكيره، وليس هناك من مخلوقٍ مسؤول عن الآخر إلا بما عليه من مسؤولية الوالد عن التربية والتوجيه حتى بلوغ الولد سنّ الرشد، وبما عليه من مسؤولية السلطان من إقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ليس هناك من مخلوقٍ مُخوّل بالتفكير عن الآخرين، كما أنه ليس هناك من مُؤهّلٍ للقيام بمثل هذه المُهمّة، وفي الوقت نفسه ليس هناك من مُسلمٍ يُعطّل عقله ويترك للآخرين مُهمّة التفكير عنه، ويعدّهم مسؤولين عنه، كما لا يحقّ لأي امرىءٍ مهما أُوتي من سلطةٍ أو جبروتٍ أن يحجر على عقول الآخرين ويزعم لنفسه مُهمّة التفكير عنهم، وأنه لا يُخطىء، ولا يقول إلاّ الحقّ، وقد عصمه الله عن الباطل. ولا يعني هذا أنّ العقل كامل الإدراك لا يحيد، عارف بكنه

الأشياء لا يزيع، لا، بل هو قاصر محدود، لا يُدرك إلّا بحدودٍ وهي ما أهّله الله إليها، ولا يصل إليه من كنه الأشياء إلّا ما فطرها الله عليه.

ولعلّنا نُدرك من سيرة رسول الله ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين، وهم القدوة الحسنة لنا والأسوة الصالحة، الحثّ على استعمال العقل، وضرورة التفكير في كلّ موضوعٍ مهما كانت قيمة الذي أنفذه أو قال فيه.

لمّا أنفذ رسول الله ﷺ صلح الحديبية، ولم يبق إلّا الكتاب، لم يرق لكثيرٍ من المسلمين هذا الصلح، ولم يُدركوا حقيقته، ومع إيمانهم العميق بنبوّة رسول الله ﷺ وعصمته، وأنّه لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى، ومع ذلك فإنهم يُريدون أن يعرفوا حقيقة الأمر، ويستوضحوا ما خفي عنهم، ويُدركوا ما فاتهم، أو ما لم تستوعبه عقولهم، ومن هؤلاء المسلمين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الذي أسرع إلى أبي بكرٍ، رضي الله عنه، فقال: يا أبا بكرٍ، أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى.

قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى.

قال: فعلام نُعطي الدنية في ديننا؟.

قال أبو بكرٍ: يا عمر، إلزم غَرْزَهُ، فإني أشهد أنه رسول الله.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: ألست برسول الله؟ قال: بلى.
قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى.
قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى.
قال: فعلام نُعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أُخالف أمره، ولن يُضيّعني.

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللّهم؛ فقال رسول الله ﷺ: اكتب: باسمك اللّهم، فكتبها؛ ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو؛ فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فقال رسول الله ﷺ: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضهم عن بعضٍ، على أنه من أتى محمداً من قريشٍ بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمدٍ لم يردّوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة[1]، وأنّه لا إسلال[2] ولا إغلال[3]، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمدٍ

---

(١) أي صدور منطوية على ما فيها، لا تبدي عداوة. أي حسن النية.
(٢) لا إسلال: لا سرقة.
(٣) لا إغلال: لا خيانة ولا غدر.

وعهده دخل فيه، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد قريشٍ وعهدهم دخل فيه.

وأهمّ تصرّف سهيل بن عمروٍ المسلمين كثيراً فزادهم همّاً على همّ الصلح نفسه.

وبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمروٍ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمروٍ يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى سهيل بن عمروٍ ابنه أبا جندلٍ قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلبيبه، ثمّ قال: يا محمد قد لجّت[1] القضية بيني وبينك قبل أن يأتي هذا، قال: صدقت. فجعل سهيل ينتر[2] ابنه، ويجرّه ليردّه إلى قريشٍ، وجعل أبو جندلٍ يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأردّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم من الصلح، وتصرّف سهيل بن عمروٍ في كتابة الصلح، ثم في إعادة ابنه أبي جندلٍ بعنفٍ.

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنّا لا نغدر بهم.

---

(١) لجت: تمت.

(٢) ينتر: يشدّه بعنف.

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندلٍ يمشي إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل فإنما هم مشركون، وإنما دم أحدهم دم كلبٍ. قال: ويدني قائم السيف منه، قال: يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، قال: فضنّ الرجل بأبيه، ونفذت القضية.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ قد خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلمّا رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمّل رسول الله ﷺ في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم. فلمّا أمرهم رسول الله ﷺ بنحر الهدي، والحلق أو التقصير، ما كادوا يفعلون، وتأخّروا في تنفيذ ما أُمروا به ـ على غير العادة ـ حتى قام رسول الله ﷺ فنحر، وحلق قبلهم، بناءً على مشورة أُمّ المؤمنين أُمّ سلمة هند بنت أبي أُميّة، رضي الله عنها، فتسابقوا للتنفيذ، فنجوا بعد أن كادوا يهلكون.

لقد ربّى الإسلام أبناءه على التفكير وعلى ضرورة تبيان الحقائق، وألّا يكونوا كالسوائم، يُفكّر رعاتهم لهم فيبحثون لهم عن المرعى والكلأ، لذا أرادوا أن يعرفوا حقيقة الصلح مع إيمانهم الكامل بنبوة محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام، ولهذا الإيمان كادوا يهلكون لتأخّرهم بتنفيذ أوامره، ولو كان غير رسول الله لما كان ذلك.

وفي أيّام أبي بكرٍ الصدّيق، رضي الله عنه، لما قرّر إنفاذ بعث أسامة، اعترض الصحابة ورأوا غير ذلك حتى سمعوا من أبي بكرٍ الحجّة فوافقوا وأيّدوا، ولمّا أراد قتال ما نعي الزكاة رأوا غير ما رأى وأبدوا وجهة نظرهم على لسان عمر بن الخطاب الذي قال: يا خليفة رسول الله كيف تُقاتلهم ورسول الله ﷺ يقول: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم» فقال رضي الله عنه: حتى يقولوها بحقّها ومن حقّها تأدية الزكاة، والله لأُقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، لقد سمع ذلك الصحابة والمسلمون جميعاً. ووعوا ذلك القول، وفهموا معناه، وأيّدوا رأي خليفتهم، ودعموه وكانوا السند له.

وفي التاريخ أمثلة كثيرة على طلب المسلمين من أميرهم توضيح وجهة نظره، والنقاط الأساسية التي استند عليها في قراره. ولكنّ المُغالطات تأتي في أن يقول القائد الذي يُريد الموافقة على قراره دون مناقشةٍ، ويبغي تأييده دون بحثٍ، وأن يقول الجندي الذي لا يُريد التعب وإجهاد النفس والذي طوّع نفسه أن تكون إمّعة، وهيّأ نفسه للعصبية فيقول هذا وذاك: ولكن أين السّمع والطّاعة! فعن عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن لا نُنازع الأمر أهله، وأن نقول بالحقّ حيثما كُنّا لا نخاف في الله لومة لائمٍ. هذه المغالطات هي التي سبّبت الأذى الكثير فمنذ أن أصبح

المسلمون كالسوائم يسمعون ولا يُدركون تغيّرت أحوالهم وسهُل ركوبهم والسير بهم في كل فلكٍ وإلى أية جهةٍ.

نحن لا نُؤيّد المخالفة ولا ندعو إلى المعصية ـ معاذ الله ـ ولكن نطلب المعرفة ليسير المرء على بيّنةٍ، وهناك فرق كبير بين المخالفة وبين تبيان طلب الحقيقة بتوضيح الرأي وإظهار شرعية الموضوع فقد يخفى ذلك على الكثيرين إذ ليست عقول الناس جميعاً واحدةً، ولا إدراكهم واحداً، ولا قدرة الاستيعاب لديهم واحدةً. لم يُخالف عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عندما أراد أن يستوضح عن صلح الحديبية، كما لم يُخالف المسلمون رسولهم يومذاك وقد أصابهم همّ كبير، ولم يُخالف عمر بن الخطاب وبقيّة الصحابة أبا بكرٍ عندما سألوه كيف تُنفذ بعث أسامة وقد تكالبت العرب علينا من كلّ جهةٍ؟ وعندما سألوه كيف تُقاتل مانعي الزكاة ورسول الله ﷺ يقول: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا «لا إله إلا الله» فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم». فلما أخبرهم أيّدوا وأطاعوا. بل لم يكفر إبراهيم عليه السلام حين طلب من ربه أن يُريه إحياء الموتى. ﴿وإذ قال إبراهيم: ربّ أرني كيف تُحي الموتى، قال: أو لم تُؤمن قال: بلى ولكن ليطمئنّ قلبي، قال: فخذ أربعةً من الطير فصُرهُنّ إليك ثم اجعل على كلّ جبلٍ منهنّ جزءاً ثم ادعُهُنّ يأتينك سعياً، واعلم أنّ الله عزيز حكيم﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

هكـذا علّم الإسلام أبنـاءه الاستفسار وطلب تـوضيـح الحقـائق ليسير الفرد منهم على بيّنةٍ ليُجيب إن سُئل وليعرف إن طُلب منـه، ولم يقبل أبداً أن يكون أتباعه ﴿كمثل الـذي ينعِق بما لا يسمـع إلا دعاءً ونداءً صُمّ بُكم عُمي فهم لا يعقلون﴾.

وهناك نقطة ثانية وهي «لا طاعة في معصية». فربّمـا كان القـائد قـد غفل عن بعض النـواحي، فليس هناك من أحـدٍ معصـوم، أو أهمل جانباً أو غابت عنه أمور كـلّ هذا جـائز، ومن واجب إخـوانه أن يُـوضّحـوا لــه الحقّ وأن ينصحـوه فــالمؤمنـون بعضهم لبعضٍ نصحة، والمنافقون بعضهم لبعضٍ غششة. وكلّ منّا يـذكر السـريّة التي أرسلها رسول الله ﷺ في شهـر ربيع الآخـر من السنة التـاسعة إلى الشّعيبة (ساحل بناحية مكّة) بإمرة علقمـة بن مُجزّزٍ المـدلجيّ في ثلاثمائة رجلٍ، فلمّا وصل إلى المكان المطلوب هرب منـه الأحباش، ثم انصرف عائداً فلمّا كـان ببعض المنازل استـأذنه بعض الجيش في الانصراف حيث لم يلقوا كيداً، فأذن لهم، وأمّر عليهم عبـد الله بن حذافة السهميّ، فنزلوا ببعض الطريق، وأوقد القوم ناراً يصـطلون عليها ويصطنعون الطعام، فقال: عزمت عليكم إلّا تواثبتم في هذه النـار! فقام بعض القـوم فتحـاجـزوا حتى ظنّ أنهم واثبـون فيهـا، فقال: اجلسوا إنما كنت أضحك معكم. فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «من أمركم بمعصيةٍ فلا تُطيعوه».

ولنعُـد إلى حديث عبـادة بن الصامت، رضي الله عنـه: (بايعنـا

رسـول الله ﷺ على السمـع والـطاعـة، في اليسر والعسر، والمنشط والمكـره، وأن لا ننازع الأمـر أهله، وأن نقول بـالحقّ حيثـما كنّـا لا نخـاف في الله لومة لائم). ألا تُقال كلمـة الحقّ للإخـوة؟ ألا تُقال للقادة؟ إن هذه أوّل الأمكنة التي يجب أن تُقال فيهـا هذه الكلمـة، وإنّ هؤلاء أحقّ الناس بالقول لهم، وهم أوّل الذين يـطلبون هـذه الكلمة أن تُقال لهم، ويعـدّون ذلك من واجب الأُخـوّة الملقى على عاتقهم، ومن الواجب الشرعي أن تُقال لهم ومن الواجب الشرعي أن يسمعـوا ذلـك. عن تميم الـداري قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «الـدين النصيحة، الـدين النصيحة، الـدين النصيحة لله ولكتـابـه ولنبيّـه ولأئمة المسلمـين وعامتهم»، وهـل تكون نصيحـة الأئمة إلّا بتنبيههم عند الغفلة، وألا يُغرّوا بالثناء الكاذب لهم.

وأخيراً متى كان في الإسلام من يُفكّر بعقول الآخرين، ويـطلب من أتباعه ذلك ويُلزمهم، إنّ هذه من صفات فرعون، [قال فرعون ما أُريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد]. ومتى كان بين المسلمـين من يُعطّل عقله ويـطلب من الآخرين أن يُفكّـروا له. إن المسلمـين قد حـلّ بهم ما حـلّ منذ أصبحـوا كـالسـوائم يُفكّـر لهم الراعي يقودهم إلى مواطن الكلأ والعشب وفي الوقت نفسه يقودهم إلى المسلخ.

لقـد آن للمسلمـين أن ينتهـوا من عبـارة «إن لجـماعتنـا علماء ومُفكّـرون يعرفـون الحـلال من الحـرام، ويعـرفـون طـريق النجاة

ويسـيرون بنـا إليـه» هـذه عبـارة لا يقـولهـا إلاّ الجهلة، وضعـاف العقول، ولا تضمّ الحركـة الإسلاميـة أمثالهم إلا إذا كتبت لنفسهـا النهاية، أو مُجانبة الحقّ، والبعـد عن الطريق المستقيمـة. إنه يـوجد علماء ولكن قـد يغفلون، وقـد يُغـرّوا، وقـد تفـوت عليهم بعض الأكـاذيب والألاعيب الشائعـة اليوم، فيجب تنبيههم وعـدم تركهم فيما هم عليه لأنهم علماء، ولأنّ عقولنا مُعـطّلة، وهـم يُفكّرون لنـا، أو قد منحناهم عقولنا.

إنّ الإسلام لا يعرف هذا ولا يُقرّه.



انفصام الرؤية

إنّ على المرء أن يقيس الأمور بمقياسٍ واحدٍ سواء أكانت له أم عليه، ويُوزن الأشياء بميزانٍ واحدٍ، لا يُطفّف إن كان له، ولا يُنقص إن كان عليه، وكذلك على المسلم أن ينظر إلى أيّ موضوعٍ بالنظرة نفسها التي ينظرها إلى مثيله، وإلاّ كان نوعاً من الغبن وعدم الإنصاف، أو من الظلم والمقياس غير الصحيح ويُمكن أن نُسمّيه بانفصام الرؤية، ويحدث هذا نتيجة طغيان الهوى والمصلحة، أو نتيجة الكراهية، أو المحبّة و . . . . .

لقد تحدّث الناس كثيراً عن هذا الجانب الاجتماعي فيقول الشاعر:

وعين الرضا عن كلّ عيبٍ كليلة
كما أنّ عين السخط تُبدي المساوئا

والأمثال كثيرة مُتداولة على ألسنة الناس، فهذا يقولون عنه: يضع يده على عينه فلا يرى شيئاً، وعن ذاك يقولون: لا يرى إلاّ من ثُقبٍ ضيّقٍ، ويتحدّثون عن الثالث فيقولون: على عينه غشاوة،

ولطالما قالوا: يرى القذى في عين غيره ولا يرى العصا في عينه.

وإذا كان هذا مذموماً من الناحية الاجتماعية، مكروهاً من الجانب الأخلاقي فإنه مُحرّم من الجانب الشرعي إذ جاء النهي عنه بصيغة الأمر ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله، شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن قومٍ ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتّقوا الله، إنّ الله خبير بما تعملون﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نُكلّف نفساً إلّا وسعها، وإذا قُلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون﴾[2].

ومع النهضة الإسلامية التي حدثت في كثيرٍ من أمصار العالم الإسلامي، ومع اندفاع كثيرٍ من الشباب نحو العمل الإسلامي والحركات الإسلامية حرص الأعداء على امتصاص نقمة هؤلاء الشباب على أعداء الإسلام اليهود والنصارى والمُلحدين من كل شعبٍ وأُمّةٍ وبالأصح على الدول الأجنبية ذات النفوذ في البلدان الإسلامية، فكان من مُخطّطات الأعداء إقامة مُؤسساتٍ تحمل الهوية الإسلامية والشعار الإسلامي، والعنوان الإسلامي حيث تستوعب

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.

نشاط هؤلاء الشباب فيُدافعون عنها عصبيةً لها ما داموا فيها، ثم يصبّ نشاطهم في نهاية الأمر في قنواتٍ ليست نظيفة المياه فلا هي صالحة للشرب، ولا هي صالحة للاستعمال، وتؤول أخيراً إليهم بعد أن اتّسخت بأيدي أتباعهم المُشرفين عليها.

تقوم في عددٍ من أمصار العالم الإسلامي مُؤسسات إسلامية حكومية بعضها يُؤدّي دوره، وبعضها الآخر في طريق تأدية ما عليها، وغالباً ما تعمل هذه المؤسسات حسب سياسة البلدان التي تقوم فيها ـ وهذا أمر طبيعي ما دامت هي التي أقامتها، وهي التي تُشرف عليها، بل وتُنفق عليها ـ وقد استوعبت هذه المؤسسات عدداً ليس بالقليل من الشباب الإسلامي، منهم من انصرف بإمكاناته كلها في عمل هذه المؤسسات، واستفاد من ناحيةٍ ماديةٍ حتى غطّت على رؤيته كلها، وأصبح على عينه غشاوة، وشعر أنه يُؤدّي دوراً إسلامياً كبيراً واقتنع بهذا كل القناعة، وأصبح يُدافع عنها ويُنافح، ومنهم من استفاد بشكلٍ جزئيٍ، لكنها فائدة، وسمع ممّن هو أعلى منه من الذين يستفيدون من هذه المؤسسات أو ممن يقومون على التوجيه والإشراف أنها تُقدّم خدماتٍ واسعةً وتُؤدّي دوراً كبيراً في العمل الإسلامي، فكانت الفائدة، وكان قول الأعلى شأناً كافياً لتغطية العيون كاملةً بقطعةٍ من القماش الأسود حتى لا ترى العين أيّة سلبيةٍ، بل تنقلب الحقائق.

إن هذا الواقع نفسه تعيشه مُؤسسات أُخرى في البلد نفسه أو في

خارجه، فما كان منها في الداخل يلقى نقداً فيه من الشدّة ما دامت لا تُوجد أيّة فائدةٍ أو مصلحةٍ، ومن باب حسن الظنّ بالآخرين لا تُوجد غشاوة على العين بالنظرة هنا فترُى الأشياء على حقيقتها، والأحداث على طبيعتها، وفي هذا النقد شيء من اللين أيضاً حتى لا ينال القائمين على أمر البلد وهم أنفسهم قد أوجدوا المؤسسة الثانية التي يستفيد منها صاحب النقد، وإن كان يقول: إن القائمين في كلّ البلدان على صعيدٍ واحدٍ من الصلات المشبوهة أو المعروفة مع أصحاب النفوذ الحقيقي ممن كانت لهم السيطرة في الماضي على أكثر أمصار العالم الإسلامي. أليست هذه مُغالطات في التمييز بين مُؤسستين مُؤسسهما جهة واحدة تُشرف عليهما، وتُنفق عليهما، وتتعهدهما، غير أنّ واحدةً منهما نستفيد شخصياً منها نحن وآخرون يُوجّهوننا، والثانية لا نحصل منها على أيّة فائدةٍ؟ أليس هذا بظلمٍ؟ أليس هذا بافتراءٍ؟.

أما المؤسسات في بلدٍ آخر فالأمر يختلف تمام الاختلاف لأننا نعيش خارج ذلك البلد فنتّهم المؤسسة، والنظام الذي أوجدها، والمُشرفين عليها جميعاً، ونُعطيهم أسوأ الصفات من نفاقٍ، وكفرٍ، وخيانةٍ، وبُعدٍ عن الحقّ، والضلال و . . . . أليست هذه مُغالطاتٍ ما دام القائمون على المؤسسات يتصلون جميعاً بقنواتٍ خارجيةٍ، ويسيرون في فلكٍ واحدٍ، وإن بدا بينهم الاختلاف إلاّ أن هناك قنواتٍ أُخرى تصل بعضهم ببعضٍ؟ أليست هذه المغالطات لأننا

نستفيد من بعض هذه المؤسسات ولا نستفيد من بعضها الآخر؟.
إنه منطق ليس فيه حكمة، ولا نظر، ولا عقل.



القيادة أمام الجند

لما قامت ثورة الزنج في منتصف القرن الثالث الهجري، واستفحل أمرها، حتى سيطرت على البصرة، وفعل الثوار الأعاجيب بالسكان، وأحرقوا المدينة، وكانت الدولة العباسية تُرسل إليهم الجيش إثر الآخر فيعود كل منهما بالفشل، وتبعث بالقائد تلو القائد فما يرجع إلّا بالنتيجة التي رجع بها سابقه، فاستغرب الناس، وهال الأمر على الدولة حتى حارت فيما تفعل، فما السرّ في الهزائم التي مُنيت بها جيوشها الضخمة؟. لقد كانت الحركة من مجموعةٍ ناقمةٍ على السلطة ما دامت تُمَثِّل الإسلام، حاقدةٍ على الأغنياء إذ أن أكثر القائمين بالحركة فقراء قد جاءوا للعمل عند أصحاب الأرض، حاسدةٍ على المجتمع لأن أفراده يعيشون ضمن أسرٍ على حين أن الثوّار لا أُسر لهم قدموا شباباً للعمل، فعندهم الرغبة الملحّة للجنس بأيّ شكلٍ ولا يسمح المجتمع بشيوعية الجنس، ولا بشيوعية المال فانطلقوا وراء المُحرّضين لا يعوون على شيءٍ، تدفعهم الشهوة، ويُحرّكهم حبّ المال.

وأخيراً أرسلت الدولة المُوفّق طلحة أبا أحمد أخا الخليفة المعتمد

على الله أحمد بن جعفر المتوكل قائداً لمقاتلة الزنج فلما وصل إلى مقرّ قيادة جنود الدولة عرف مُباشرةً أسباب الهزائم التي تُمنى بها جيوش الخلافة، وهي أن الحركة إنما هي ضدّ الإسلام وتتخذ من المخالفات الشرعية أساساً لقتال الدولة، لذا يجب قبل كل شيءٍ تطبيق الإسلام بشكلٍ صحيحٍ لتزول المخالفات، وتزول الأسباب المحرّكة للثورة.

وجد القائد يقف خلف الجنود في مكانٍ أمينٍ ويدفع الجند للقتال، فيُقاتلون من غير حماسةٍ، ويعتقدون أن القائد فرّ من الزحف وخاف على نفسه ودفع الآخرين، يرغب في التضحية بهم، وليت الأمر اقتصر على ذلك، فإن أبناءه وأهله يعيشون بجانبه، والقائد الأصغر يفعل فعل من هو أعلى منه وهكذا يتشكّل معسكر من القيادات وذويهم يُقيمون خلف الجيش يُشاركونه في نفقاته ويُشكّلون عبئاً عليه بدلاً من أن يكونوا دعماً له وسنداً يتقدّمونه في المعارك، ويرفعون معنويات أفراده، ويُثيرون الحماسة لديهم.

وقف المُوفّق القائد العام يعظهم ويذكّرهم بواجبهم، ويُعطيهم صُوراً من الأسوة في الإسلام، رسول الله ﷺ وأصحابه، فيقول لهم: كان رسول الله ﷺ يُقاتل في أوّل الصفوف، ويكون دائماً في المقدمة، وهو أشجع الشجعان، وأقوى الفرسان، ويقول عليّ بن أبي طالبٍ، وهو المعروف بشجاعته «كُنّا إذا اشتدّ الخطب، وحمي الوطيس، واحمرّت الحدق لُذنا برسول الله ﷺ». وكذا كان

الصحابة الكرام عندما يتولّون أمر السرايا والمعارك، وهم الذين يطلبون المبارزة، ويخرجون لمن يدعو إليها من الخصوم. وأعطى الأمثلة وأجاد. . . .

وجد الرجال الذين يتحمّلون مسؤولية القيادة أنهم قد أُقيمت عليهم الحجّة، وأنهم قصّروا في واجبهم، وليس عليهم سوى التبرير بالمغالطات في معرفة الوقائع واجتهاد الفكر، فقالوا: إن القائد يُمثّل الدولة فإن هُزم فإن الدولة قد هُزمت، على حين أنه عندما يُقاتل غيره، فهو نائب عنه، فإن يُهزم فإنما هي هزيمة فردٍ والقائد لا زال يمسك بخيوط المعركة، ويمكنه إعادة تشكيل الجيش بسرعةٍ. والقائد العام يُمثّل الجيش فإن صُرع فقد ضاع الجيش على حين أنه عندما يُصرع غيره فقد قُتل فرد من الجيش ويستطيع القائد بسهولةٍ تعيين قائدٍ جديدٍ يتولّى أمر القتال.

سأل المُوفّق القائد العام: فما بال هذا المعسكر الطويل من القيادات الذي يضمّ القادة الصغار والأهل و. . . .؟ فاستمرّت المغالطات بل لا بدّ لها من أن تستمرّ، فأجاب أحد الكبار: إن كل قائدٍ مهما قلّت رتبته، وصغُر عدد أفراد المجموعة التي يقودها يتّخذ من فكرة القائد العام قاعدةً يسير بموجبها فيضع نائباً عنه ويُكلّفه بمباشرة القتال، وأما الأبناء فيجب أن يتعلّم أبناء القادة ليكونوا قادةً، وكما يخلف الخلفاء أبناؤهم، فإن أبناء القادة يُربّون ليتولّوا مكان آبائهم، إضافةً إلى ذلك فإن المصاب بأبناء القادة جليل،

وجـــرح أليم للجيش كله، يُضعف معنـويــات الصـديق ويـرفع معنويات العدوّ فيحرص الخصـوم عليه، ويبـذلون الكثـير من أجله لـذا فإننـا نُبقيهم بعيـدين في مـأمنٍ من العـدوّ، ونُـرّبيهم ونُعلّمهم ليكونوا كما تصبو إليه نفوسنا.

وعـرف المُوفّق أن هـذا كلّه مُغالـطات فجال في معسكـر الأبناء فوجد كثـيرين من غير الـذين ذُكروا لـه، فسأل من هؤلاء؟ قـالوا: رأينا أن يدخل المعركة فقط الجنود الذين لا أهل لهم، ليكونوا أقدر عـلى القتـال، لا يخشـون عـلى ذويهم، ولا يُفكّـرون بـأهليهم عنـد المعـركة، قـال: إذن يدخـل المعـركـة أفـراد قليلون، ليس عنـدهم الـروح المعنويـة الكافيـة ما دامـوا لا يُدافعـون عن فكرةٍ وإنما عن أشخاصٍ خلفهم، ولا يُقاتلون في سبيل غايةٍ وإنما خـدمة لأولئك الذين خلّفوهم وراءهم. وإضافةً إلى هذا كلّه فإنهم يرون أعداءهم من الزنج الذين يُقاتلونهم إنما يُحاربون هذه التفرقة القـائمة، وهـذا الـظلم الواقـع عليهم، والحيف الذي يُصيبهم من القـادة والسـادة فيعطفون عليهم، وعوضاً من أن يُقاتلوهم بضراوةٍ يُحاربونهم بهوادةٍ ولـينٍ، على حـين أنّ الزنـج يُهاجمـونهم بمنتهى القسوة، وبـذا تحلّ الهزائم بجيوش الخلافة، وينتصر المارقون من الزنج.

أعلن المُـوفّق القائـد العام الجـديد لجيـوش الخلافـة أن هـذا لن يكون بعد اليوم، وليستعدّ الجميع لخوض المعـركة، وأن المعـركة في سبيـل الإسلام فـإما أن تنتصروا وتعلو كلمـة الله، وإما أن تُهـزمـوا

وتنـزل بكم النكبات ويُسيـطر الباطـل. وكان هـذا بدء الانتصـار، وحماسة الجنـد جميعاً. وعلمـوا أن ما يحـاول تبريـره بعض المتنفذين ليس إلّا مُغـالـطاتٍ وتعـلّاتٍ لا معنى لهـا، ولم تكن إلا لمصــالـح خاصة.

وإذا كان الموفّق قد أظهر لأصحاب الشأن أن كلامهم مُغالـطات وبيّن لهم حقيقة الأمر، وأصل الفكرة، وشرعية العمل غير أن أُناساً عـرفوا هـذه المغالـطات واستمرّوا عليهـا حتى هذا اليـوم فـيرسلون للقتال الناشئة، ويجلسون من مكـانٍ أمينٍ، يُصرّحـون ويتطاولـون، ولم تكن النتـائج إلا كـما كانت بـالأمس، يُقتل النـاشئة، وتـتراجـع الدعوة، ويُنـظر إليها عـلى أنها سبب الأحداث والمجـازر، ما دامت غير قادرةٍ على شيءٍ، وما دام رجـالها لا يُفكّـرون إلا في مصالحهم. ويجلس القــادة عـلى الأرائــك يتفـرّجــون، ويسعـون لمصــالحهم بالمفاوضات.

القـــدوة

وجـال المُـوفّق في معسكـر الأبنـاء فـوجـد فيـه الـترف في أسمى معانيه، الأرائـك الجميلة وأفخر الأثـاث، وغُرف الـطّعام، وتعـدّد الحجـرات، والرواحـل المسرجـة عـلى الأبـواب تنتـظر صـاحبهـا، والعبـدان والإمـاء يـطوفـون بـين الغـرف يخـدمـون، والجـواري الحسناوات عند أقـدام الأبناء ينتـظرن الإشارة لتلبيـة كلّ مـطلبٍ، والخـزائن المُقفلة الخـاصـة بـالأمـوال ويبـدو أنها مليئـة بـالـدنـانـير والمجوهرات و. . . . وترك المعسكر ونفسه مليئة بالحقد عـلى ساكني هـذا الذي أطلقـوا عليه اسم المعسكـر، وما هـو إلّا قصور صغيرة مجتمعة ضمن أسوار المعسكر تظهر من الخارج عليها البيوت العادية أو مُتـواضعة إلى حـدٍّ، غير أن داخلهـا يُنـافس أفخم القصـور ومـا تضمّه أعظم بيوت المترفين الموسرين، مـع العلم أن الموفّق هـو أخو الخليفة، والمُتصرّف بشؤون الملك، والمُرشّح لتسلّم السلطان.

وانتقل المُوفّق إلى مُعسكر الجند فـوجد فيـه البساطـة الحقّة ورأى فيـه الصورة الصحيحـة لبيوت المُقـاتلين، وقارن بـين المكـانـين من حيث الأطعمة والأشربة وراحـة المأوى فـوجد فـرقاً عـظيماً لا يُمكن

المقارنة بينهما، فكان إذا أراد أحد الجند أن يزور قريباً له أو من لـه معرفة في معسكـر الأبناء شعـر أنه يسـير إلى مكانٍ للنـزهة، وأحسّ كـأنـه في حلمٍ، إذ يعيش في جنـةٍ، فـامتـلأت نفس المـوفّق أسىً وحسـرةً وعرف بعض السبب الـذي حرّك الـزنـج وأشعـل ثـورتهم حيث كانوا يعيشون خدماً عند سادةٍ لا يرعون حقّهم، ولا يُقدّمـون لهم ما أمرهم الإسلام أن يفعلوه، يُقيمون في المزارع الواسعة ويأتي أصحـابها مـع نسائهم للنـزهة فيكـونوا عبيـداً لهم، عُـراةً وأُولئـك يرفلون بالحرير، جياعاً وأولئك يُبذّرون، يتفتّقون شباباً وأولئك بين النسـاء والجواري ينعمـون، ويُخـدمـون. . . . ويخـدمـون ويجلبـون الأطعمـة، والأشربة، والثيـاب والمياه للغُسـل. . . . ألا تثـور فيهم حيـوية الشبـاب، ألا يحقدون. . . . كـل هذا يحـدث حتى اندلعت النـار بالهشيم وقـامت الثورة، وتتحمّـل الدولـة تبعة الإطفـاء وقـد تتمكّن وقد لا تستطيع. . . . فأسرّها المُوفّق في نفسه مُدّةً ولم يبـدها لهم وانتظر.

وحـان مـوعـد الجمعـة، وحضر المُصلّون من كـلا المعسكـرين معسكر الأبناء ومعسكـر الجند، وقـام الخطيب، وهـو إمام الجنـد، فتكلّم عن الجهـاد وأجاد، وتحـدّث عن الـزهـد في الـدنيـا وأفـاد، وأسهب في القول عن الورع والتقوى، والحساب في الآخـرة فأبكى الحضور، وأخاف الجموع، وانتهى الحديث فدعا للمسلمين بالنصر وللخليفة بالسداد، ونزل فأمّ الناس بالصلاة، وبعدها انصرف كـل

إلى شأنه.

دعا المُوفّق القادة للقاءٍ، وتحدّث معهم عن الترف الذي رآه وأن هذا لا يصحّ، والدليل على قوله ما سمعه من الخطيب نفسه قائد الجند، ومن ثم توقّف ليسمع ما يمكن أن يُجيب بعضهم، فقال الخطيب: لكن يا أبا أحمد، إن أبا بكرٍ، رضي الله عنه، كان ثريّاً، وكان عثمان بن عفان، رضي الله عنه، غنيّاً، وكان عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، مُوسراً، وهؤلاء من كبار الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً، ومن المبشّرين بالجنّة فلا نستطيع أن ندعو الناس إلى الفقر وعدم السعي والجدّ، فإن حبّ الخير مغروس في النفوس، يقول الله تعالى: ﴿وإنه لحبّ الخير لشديد﴾[1]، ويُحبّ المرء أن يتمتع في هذه الحياة الدنيا ويجب ألّا نحرمه منها و.... وأنهى حديثه في هذا المعنى والمُوفّق ساكت....

أجاب المُوفّق: يا سبحان الله.... هذه مُغالطات وكلام غير صحيحٍ فمن قال: إن الإسلام يدعو إلى الفقر ورسول الله ﷺ يقول: «اليد العليا خير من اليد السفلى»؟ ومن قال: إن الإسلام لا يدعو إلى السعي في الحياة، وبذل الجهد للإنتاج، والجد لإعمار الأرض؟ وكل مُسلمٍ عليه أن يعمل سواء أكان غنيّاً أم فقيراً ولا يحقّ له مهما بلغت أمواله ومهما كثرت أن يقول: إني لست بحاجةٍ

(١) سورة العاديات، الآية: ٨.

إلى العمل، لأنه مُلك للأمة وليس مُلكاً لنفسه، فيجب أن يُنتج ولا يصحّ أن يكون في الأُمّة أناس عالةً عليها يجلسون دون عملٍ باسم غناهم وتملّكهم. صحيح أن أبا بكر، رضي الله عنه، كان غنياً ولكنه كان يُنفق أمواله في سبيل الله، ولا ينصرف عن عمله رغم غناه بل لا يُقصّر فيه، وإنّما يُعطيه حقّه، ولا يبخل أبداً في تأدية حقّ أُولي القربى، وشراء وعتق من أسلم مما هو معروف في السير والتاريخ. وكانت عثمان بن عفان، رضي الله عنه، ثريّاً، وكان يُنفق أمواله في سبيل الله، وهذا معروف لديكم في تجهيز جيش العُسرة، وبذل تجارته لفقراء المسلمين في السنوات العجاف التي جاءت على المدينة، وكان معروفاً في صلة الرحم وإعطاء أقربائه من ماله الخاص صلةً وقربى، وهذا ما انتقده به أهل الأهواء والمُرجفين مُغالطةً وتلميحاً أن العطاء كان من بيت المال، ولم يجرؤ أحد على التصريح بذلك لأن وضع عثمان، رضي الله عنه، يُكذّب كلّ صاحب هوى يُريد المغالطة في هذا الموضوع. وكان عبد الرحمن بن عوفٍ، رضي الله عنه، غنيّاً، وكان يبذل ماله في سبيل الله، ويتصدّق حتى ينفد ماله كله في سبيل الله، ويستمرّ في العمل ويجدّ في السعي. ولم يتميّز هؤلاء الصحابة رغم غناهم عن بقية إخوانهم من المسلمين الفقراء لا في طعامٍ، ولا أثاثٍ، ولا مأوى اللّهم إلا إذا كانت هناك حالات خاصة مُفردة تُبدي الفقر على بعض المسلمين، فإن وجدت هذه أسرع هؤلاء ورتقوا ما ظهر. ولم يكن

رسـول الله ﷺ ليتميّز عن أصحـابه فكـان يجوع ويصـبر، ويتحمّل أهله الكثير. وتقول أُمّ المؤمنين عائشـة، رضي الله عنها: «كـان يأتي علينـا الشهر مـا نُوقـد فيه نـاراً، إنّما هـو التمر والمـاء، إلّا أن يُؤتى باللُّحيم». وفي روايةٍ قالت: «ما شبع آل محمدٍ من خبز البُرّ ثـلاثاً، حتى مضى لسبيله». وفي روايـةٍ أخرى، قـالت: «ما شبـع آل محمدٍ منـذ قدم المـدينة من طعـامٍ ثـلاث ليـالٍ حتى قُبض». وفي روايـةٍ ثالثةٍ، قالت: «ما شبع آل محمدٍ من خبز شعيرٍ يومين مُتتـابعين حتى قُبض رسول الله ﷺ». وفي روايةٍ رابعةٍ، قالت: «ما أكل آل محمـدٍ أكلتين في يومٍ واحدٍ إلّا وإحداهما تمر»، وكـانت تقول لابن أختهـا عروة بن الزبير: «والله يا ابن أختي، إن كنـا لننظر إلى الهـلال، ثم الهـلال، ثم الهلال - ثـلاثة أهلّةٍ في شهـرين - ومـا أُوقـد في أبيـات رسـول الله ﷺ نار». فقـال: قلت: يا خـالة، فـما كـان يُعيشكم؟ قـالت: الأسودان: التمـر والماء، إلّا أنـه قد كـان لرسـول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، فكانوا يُراسلون إلى رسـول الله ﷺ من ألبـانها فيسقينـاه» وهــذه روايـات البخــاري ومسلم. وهكذا كان مُعظم الصحابة حتى بعد أن فتحت لهم الدنيا، وعندما كان منهم الخلفاء، والأمراء، وأصحاب الشأن، عندمـا كانت ملوك الأرض تخشـاهم فما تغيّرت حالتهم ولا تبـدّلت. ولما كـان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، خليفة المسلمين، وجيـوش الفتح تنـطلق في كل اتجاهٍ تـدكّ معاقـل الشرك وتُحطّم قـواعد الـظلم والطغيـان،

وتأتي الخيرات والغنائم إلى المدينة المنورة، لم يُغـيّره شيء مما حـدث، ولم يُبـدّلـه شيء ممـا استجـدّ، فقـد أرسـل لـه عتبـة بن فـرقـدٍ من أذربيجان سفطين عـظيمين من الخبيص، فلما وصـلا إليه فتحهـما، قال: أي شيءٍ هذا؟ قالوا: خبيص. فذاقه، فـإذا شيء حلو، فقال للرسـول: أكُلّ المسلمـين يشبعون من هـذا في رحالهم؟ قـال: لا. فقال عمر: أما لا فارددهما. ثم كتب إلى عتبة بن فرقدٍ: أمـا بعد: فإنه ليس من كدّك ولا كدّ أُمّـك، أشبع المسلمـين مما تشبـع منه في رحلك.

وأضـاف المُـوفّق: هؤلاء قـادتنـا، وتقتـدي بهم الأُمّـة، ونحن وأنتم، فهذا ما يجب أن نصنعـه لا ما تصنعـون، تعيشون في تـرفٍ ونعيمٍ ويشقى جنـدكم، تحيون عـالـةً عـلى غـيركم وسـواكم يكـدّ ويتعب، فما هذا بالرشاد ولا بهذا ننتصر.

فقـال الخطيب: لكن يـا أبا أحمـد ـ أطال الله بقـاءك ـ إن أبنـاء القـادة هم من عليـة القـوم، ويجب أن يُؤمّن كـل شيءٍ لهم كي لا ينظروا إلى ما في أيدي غيرهم ويرغبون به فيُفتنوا وهم أبناء السادة، كـما أن أبـاءهم يجب ألا يكـونـوا أقـلّ من نُـظرائهم عنـد الخصـوم فتُغريهم الحياة الدنيا، فإنهم لا يمكنهم الصبر عـلى قسوة العيش ومن هنا يجب أن ننظر لهم غير النظرة إلى الآخـرين من الجند وأبنـاء بقية القوم و. . . .

فتأوّه المُوفّق وتنهّد، ثم قال: الـويل لكم إن الشيـطان قد دخـل إلى نفـوسكم من كل مـدخلٍ وسـوّل لكم ما يشتهي فـأطعمتموه، وأصبحتم تتكلّمون بما يُريد، وتُغالطون في كل حديثٍ، فهـل خُلق الجندي من طينةٍ غير طينة القائد؟ وهل يختلف عنه في شعوره؟ هل يجب أن يبقى أبناء الجنود جنوداً ويبقى أبناء القـادة سادةً؟ يجب أن تكون الظروف التي يعيشون فيها واحدةً وإمكانـات الفرد وطـاقاتـه هي التي ترفعه، وجُهوده وتضحياته هي التي تُسوّده، فكيف يـرتفع ويسود لأنه ابن قائدٍ فقط وليس لـديه إمكـانات القيـادة، ولا يمكنه تحمّـل المسؤولية؟ لا، لن يكـون. . . . أبداً. وإذا كـان القـائـد لا يصبر أمام المغريات ولا يصمد أمام الأحـداث فهل يصـبر الجندي؟ وما أصبح القائد قائداً، وما حُمّل المسؤولية إلّا لأنه كُفئاً لها، وعنـده من الفـطنة مـا يتدبّـر الأمور ومن الحكمـة ما يستـطيـع التصرّف في مختلف الظروف، فإن لم يكن لديه ذلك فقد أُعطي ما لا يستحقّـه، ووصـل إلى ما وصـل إليـه دون جـدارةٍ، ونحن ظلمة. . . لا، لن يكون. . . . أبداً، ولن يستمرّ.

وأضـاف المُوفّق: إن هـذا الوضـع الذي تعيشـون فيه والتصرّف الذي تقومون به سيُؤدّي في النهاية إلى أن يحرص الجندي على تقليد قائده في أثاث بيته، وتأمين كل شيءٍ لولده على الصـورة نفسها التي يُؤمّنهـا القائـد لابنه وهـذا أمر صعب عليـه لذا فهـو ينصرف بكـل جهده لتحقيق ما يُفكّر فيه فتصبح الحياة عنده ماديةً ويستغرق ذلك

كل وقته ولا يبقى ما لديه للبحث في أمر القتال، ومصلحة الأُمّة، والدعوة، بل ولا لعبادته الخاصة فتبهت العقيدة في نفسه تدريجياً ويتحرّر من القيم التي تفرضها عليه مع الزمن، وتضعف الحماسة وبالتالي يُؤدّي ذلك إلى ضعف الأُمّة، هذا من جانبٍ ومن جانبٍ آخر فإن الجندي يحسد القائد على ما لديه، وما يحصل عليه من زياداتٍ، ومن رفاهيةٍ، وخاصةً عندما يُطلب منه التضحية ومزيدٍ من العطاء، فيتصوّر الجندي نفسه أنه يعمل، ولا يعمل القائد، وإن كان هذا يحدث أحياناً ـ مع الأسف ـ بل إنه يعمل لخدمة القائد لذا فإنه يُحاول أن يتهرّب من المسؤولية، وتضعف الأُمّة، وكذلك ينقسم المجتمع إلى قسمين، أغنياء وفقراء وتتفرّق الأُمّة، ويتشتّت شملها وتضعف. ولا شك فإن معنويات الجند ستضعف عندما يرون التمييز في السكن، وفي المرتّب، وفي اللباس، والتفرقة في العطايا والمنح، وفي المعاملة والنظرة، وبضعف المعنويات تتراجع الأُمّة وتتأخّر، وينتصر الخصم عليها، وتخضع له فيتحكّم فيها، فتُعاني من ضغط العدوّ وضعف الصديق.

إن هذا لن يحدث أبداً ـ إن شاء الله ـ ما دُمت حيّاً، ولن أقبل بالمغالطات التي تطرحونها وتُروّجونها بين الشعب، وهو إن أظهر الرضا لكنه غير قابلٍ بها، أبدى الموافقة خوفاً، وفي نفسه حقد عليكم، ولن أقبل أبداً أن يُظهر امرؤ غير ما يُخفي، وعليكم أن تستعدّوا غداً لإزالة معسكر الأبناء، وستعيشون بعدها في معسكرٍ

واحدٍ مع الجند، وسيكون الطعام مُتشابهاً، والسكن مُتشابهاً، ومن أبدى ضروباً من الشجاعة، وأظهر كفاءةً أخذ مُكافأةً، ولكل عطاؤه حسب الإمكانات التي يُقدّمها.

ولقد أزال فعلاً في اليوم التالي هذه التفرقة، وبدأ يلتقي مع الجميع، ويُفنّد ما كان من مُغالطاتٍ، فالتفّ الناس حول قائدهم، وارتفعت معنوياتهم، ورسخت العقيدة في النفوس، وهبّوا للدفاع عنها ضدّ أولئك الذين أرادوا هدمها، فانتصر المسلمون على الزنج، بإذن الله، وانتهت حركتهم بفضل الله ثم بجهود المُوفّق أبي أحمد الذي وجد الحلّ بتطبيق نظام الإسلام بشكله الصحيح إذ زال كل ما كان ينتقده الزنج وما يجدون من ثغرات في نظام الحكم العباسي.

مات أبو أحمد المُوفّق طلحة بن جعفر المتوكل ولم يل الخلافة، وإن كانت أكثر أمورها بيده طيلة المدة التي عاشها في خلافة أخيه المعتمد، ومات أخوه بعده، وخلفه ابن أخيه، ابن المُوفّق أحمد بن طلحة بن جعفرٍ المتوكل، والمعروف بلقب «المعتضد بالله» وكان درّة الخلفاء العباسيين، وقد حكم مدة عشر سنوات (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) وقد سار على نهج والده المُوفّق، فاستطاع بتطبيق نظام الحكم الإسلامي، أن يجتثّ جذور حركة الزنج، ولما ظهر القرامطة في جنوبي العراق، حاربهم، واضطروا إلى اللجوء إلى المخابىء. وبعد المعتضد بالله، عادت تبرز المغالطات وتظهر تبريرات الضعف

والتزلّف، وتصرّف السوء تدريجياً حتى سادت مع الزمن وعمّ الضعف معها، وتمكّن الأعداء من السيطرة عليها وبسط نفوذهم، وأخذ المسلمون يُقلّدون أعداءهم وأصابت الكثير منهم الهزيمة النفسية وغدوا تبعاً لغيرهم يتحرّكون حسب إشارة خصومهم، ويعدّون أنفسهم في مؤخرة الركب.

واهتزّ المجتمع الإسلامي، وانتفض الواعون فيه يُخاطبون العقول، ويُحرّكون الضمائر، ويُبيّنون الواقع، ويدعون إلى الإسلام، فقامت صحوة إسلامية كان يُرجى الخير على أيدي أصحابها ويُتوقّع نهضة في العالم الإسلامي - بإذن الله - نتيجة الجهود المبذولة، فقامت حركات واعية في كل مصرٍ من الأمصار، وتألّق الأمل غير أن بعض القادة رجعوا يتنافسون في متاع الدنيا، ويُتاجرون بنشاط القواعد ويتحرّكون من هذا المنطلق ويدفعون الأتباع للعمل، وقد انغمسوا هم في اللعبة الدولية، وانصرف القواعد يُقلّدون قادتهم فظهرت نكسة على الصحوة، ونخشى أن نُصاب بما سبق أن وقعنا فيه، ونعود إلى حيث ابتدأنا.



التلاعب

عندما انتقل يوسف بن تاشفين من المغرب إلى الأندلس عام ٤٧٩ هـ يُريد دعم إماراتها ضدّ الطاغية الإسباني الذي استبدّ بالأمر وغدا يُهدّد حُكّامها المتفرّقين. فقد خاف يوسف على ضياع الأندلس من أيدي المسلمين، وصعب عليه أن يرى الصليبيين يستذلّون المسلمين. ولما حطّ رحاله في الأندلس رغب أن يسمع توجيه الدعاة إلى السكان، وكلام الذين يتصدّرون المجالس يتحدّثون عن الإسلام ويدعون إليه، ويعرف معنويات الشعب ومدى تأثّرهم بكلام الوعّاظ والمحدّثين.

خرج يوماً إلى صلاة الفجر وحده لا يعرفه أحد ولا يعلم من أمره فرد، وقد علم أن بعد الصلاة درساً وتوجيهاً للشيخ أحمد التبريزي. فلما انقضت الصلاة تحلّق النّاس وانتظموا ثم جاء الشيخ وتصدّر بتعالٍ غير مقبولٍ، وأخذ يُوجّه الناس، ويبحث في العقيدة ووحدانية الخالق، وكان يُردّد في حديثه «إخواننا المسيحيون» و «والمسيحيون مُوحّدون» ومن هذه العبارات التي لا يصحّ قولها أولاً، وهي تُضعف معنويات المسلمين، ولا تدفعهم إلى القتال،

والمسلمـون في حالـةٍ يحتاجـون معها إلى الحثّ عـلى الجهاد، وإبـراز واجب المسلمين في حرب أعدائهم، فسأل يوسف بطبيعتـه البدويـة سُؤالاً على سجيته دون تكلُّف ولا اهتمامٍ ، فاستغرب الحضور وإن وجدوا فيه الحقّ والجرأة، وبدا لهم أن الشيخ يُغالط في أقواله ويُريد المـداهنـة. قـال يـوسف: كيف تقـول يـا شيـخ «مسيحيـون» والله سبحانه وتعـالى يقول عنهم: «نصـارى» حيث يقول: ﴿ولن تـرضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملّتهم....﴾[1]؟ والمسيح عليه السلام بريء منهم فلماذا تنسبهم إليه؟.

قــال الشيـخ: هكــذا جـرت العــادة، وليس في الأمـر.... وتلعثم....

قـال يوسف: تقـول عنهم: «مُـوحّـدون» والله سبحـانـه وتعـالى يقول: ﴿لقد كفـر الذين قـالوا إن الله هـو المسيح بن مـريم، وقال المسيح: يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربّي وربّكم، إنـه من يُشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة ومأواه النار، ومن للظالمين من أنصار﴾[2].

قـال الشيخ: يـا بُنيّ إن النصـارى مُـوحّـدون غـير أنّهم يجعلون الألوهية أقانيم ثلاثة نحن نُوحّدها في «الله الـواحد الأحـد، العزيـز القهّار» وهم يُجزّئونها تقريباً لمفاهيم أتباعهم، وتسهيلاً لأبنـائهم...

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

والأصل في النصرانية كما نزلت من عند الله سبحانه وتعالى في صورتها الأولى - كما تعلم - لا تختلف عن الإسلام، بل تُبشّر بسيّدنا رسول الله ﷺ. فهي ديانة سماوية.

قال يوسف: ولكن حرّفها الرهبان والأحبار حتى خرجت عن التوحيد وغدت تقوم على الشرك فهي وثنية تُؤلّه إنساناً مخلوقاً.

قال الشيخ: لكن عندما نتكلّم عن النصرانية فإنما نتكلّم عنها في أصولها، كما نزلت، ولا نتحدّث عن المحرّفة منها.

قال يوسف: لكن لا يُوجد اليوم - بين النصارى - من يتبع النصرانية الحقيقية كما أنزلت، فهي لا تُوجد في عالم الواقع، كما لا يوجد إنجيل خالٍ من التحريف. إن الذي يُوجد بين أيدي النصارى هو ما يتّبعونه وهو المحرّف، وكلهم يقولون بالشرك، وهذا الأمر قائم منذ أيّام رسول الله ﷺ. ويظهر هذا في حديث «إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه».

قال الشيخ: نعم. نعم والأقانيم الثلاثة واحد...

قال يوسف: يقول الله تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثةٍ. وما من إلهٍ إلاّ إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾[1].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

قال الشيخ: وقد تلعثم وظهر عليه الارتباك. لا تُناقش كثيراً يا بُنيّ، يبدو عليك أنك غريب، وتُحبّ الجدال، وأنك أعرابي، والأعراب أشدّ. . . .، وهذا يحتاج إلى جلسةٍ خاصةٍ سأتفرّغ إليك - إن شاء الله - وقد أضعنا اليوم على إخواننا الكثير والتفت يُتابع لإخوانه الحديث. . . واضطرّ يوسف إلى السكوت.

وانتهت الجلسة وهمّ الناس بالانصراف فقال الشيخ: ما تعرّفنا على ضيفنا ومن الواجب التعرّف عليه وإكرامه. ما اسمك يا ضيفنا؟

قال يوسف: يوسف بن عبد الله. . . .

قال الشيخ: أهلاً وسهلاً. . . يا أبا سعيد (أحد إخوان الشيخ): أخونا يوسف في ضيافتك اليوم.

قال أبو سعيد: نعم. من واجبنا إكرام الضيف.

اعتذر يوسف. . . . وشكر لهم إكرامهم. . . وجلسة العلم التي يحرصون عليها.

وقام الناس للانصراف، وأخذوا يُغادرون أماكنهم. .

قال الشيخ: حبذا لو انتظر ضيفنا قليلاً.

قال يوسف: نعم. أنتظر. . . . وخرج الجميع، وبقي يوسف وحده مع الشيخ. . حتى مرافقي الشيخ خرجوا ينتظرون أمام المسجد.

قال الشيخ: يا يوسف إن وضعنا - كما تعلم - نعيش على الثغور، والنصارى يُهدّدوننا في كل وقتٍ فإن اقتحموا علينا الديار فعلوا بنا الأفاعيل وقد علموا ما نقول عنهم من النصارى الذين يُوالونهم ويعيشون بين أظهرنا، لذا نضطر أن نقول مثل هذا الكلام.

قال يوسف: وما الذي يدعوك إلى أن تقول مثل هذا الكلام؟ اجلس في بيتك، ودع الحديث لغيرك.

قال الشيخ: ولكن تصدُّر المجالس، وتقدير الناس لمن يجلس مجلس العلم أمر محبب للنفوس، وعلى العالم واجب كبير ومسؤولية أمام الله فلا بدّ من أن نُؤدّيها، ونقوم بواجبنا تجاه الأُمّة.

قال يوسف: ولكن ألا ترى أن حديثك هذا يجعل المسلمين لا يُعدّون أنفسهم للقتال حقّ الإعداد ما داموا يُقاتلون إخواناً لهم، وما دام النصارى مُوحّدين، لذا يتخاذل المسلمون على حين يقوى ساعد الصليبيين إذ يُصوّرون لهم بطارقتهم المسلمين كفاراً، وأنهم يعبدون محمداً، وأنهم يُحبّون العُدوان، ولو انتصروا عليهم لقتّلوا رجالهم، وأبقوا نساءهم عندهم سبايا وإماءً، وأنهم قد طردوا النصارى من قبل من بلاد الشام وشمالي إفريقية، واستحوذوا على بيت المقدس. وإن طرح هذا الكلام ليجعل الجند النصارى يُقاتلون بضراوةٍ الأمر الذي يجعلهم ينتصرون علينا. إن البطارقة يُغالطون رعاياهم ويكذبون ليضمنوا النصر، وأنتم تُغالطون الأُمّة

و. . . . مُغالطةً وعدم صدقٍ لتُضعفوا من الروح المعنوية ويُؤدّي بالتالي إلى الهزيمة.

قال الشيخ: لا، لا، أبداً، لا تُشغل نفسك في هذا الموضوع، فالنصر بيدالله، وهو مُؤيّد دينه وناصره، والمسلمون يستعدّون فتوكّل على الله، ولا تخف.

وانصرف يوسف وهو يقول في نفسه إن أمثال هؤلاء من مشايخ السوء لأخطر على المسلمين من أعدائهم، ولإن نصرني الله لأبدأ بهم - إن شاء الله -.

ودخل يوسف بن تاشفين الحرب ضدّ الإسبان النصارى وكانت بينهم تلك المعركة المشهورة «معركة الزلّاقة» التي وقعت في منتصف شهر رجب من عام ٤٧٩ هـ، إذ قضى المسلمون فيها على الجيش الإسباني، ويقال: إنه لم ينج من الجيش النصراني إلّا من فرّ من البداية ومنهم الملك ألفونس السادس.

ارتفعت معنويات المسلمين في الأندلس بعد هذا النصر العظيم، وحرص ابن تاشفين مُدّة إقامته في الأندلس التخلّص من مشايخ السوء الذين يُغالطون في عقيدتهم من أجل مصالحهم والحصول على متاعٍ قليلٍ من متاع الدنيا، ويُسبّبون الوهن في نفوس المسلمين، وإظهار المخلصين من العلماء الذين يقولون الحق لا يُبالون، فارتفعت بذلك أيضاً معنويات المسلمين، أو إن مشايخ السوء قد

انسحبوا من الميدان عندما لم يكن الوضع مناسباً لهم.

وما أصاب المسلمين في الأندلس في تلك المرحلة من التاريخ من بلاءٍ من مشايخ السوء أولئك يُصاب به المسلمون اليوم في معظم الأمصار، إذ يجد مشايخ السوء المجال أمامهم مفتوحاً، وهناك من يسمع لهم، وهناك من يُشجّعهم ليستفيد من فتاواهم الضالة فيُمكّن ذلك من سلطانه، كما يُشجّعهم أعوان الأعداء ومن وراءهم ليدبّ الوهن بين المسلمين ويضعف شأنهم ويتمكّن خصومهم من السيطرة عليهم وبسط نفوذهم على أمصارهم. ولا بدّ من فعل ما فعله يوسف بن تاشفين ـ رحمه الله ـ لإمكانية رفع المعنويات لدى المسلمين وإحراز النصر ـ بإذن الله ـ.



السلام

بعد أن حقّق يوسف بن تاشفين النصر في الأندلس على الصليبيين، وأمّن وضع الأمراء فيها عاد إلى المغرب، وما أن رجع حتى فُسح المجال ثانيةً أمام مشايخ السوء فانطلقت ألسنتهم بالمغالطات، وامتدّت أيديهم الباردة نحو العامة تقذف في قلوبهم الوهن، وتسلب منهم الحيوية، وتُميت عندهم فكرة الجهاد.

بدأت المغالطات بإعلان أن الإسلام دين السلام لا يعتدي على أحدٍ، ولا يُحارب إلاّ إذا هُوجم، ولا يدخل منطقةً إلا إذا اعتُدي عليه، ولا يدخلها إلا لمنع الهجوم عليه ثانيةً وقطع دابر الغارات على أبنائه، وإذا مدّ سلطانه إلى مكانٍ فإنما ليصل إلى مكانٍ منيعٍ يتقي فيه شرّ الجوار وحرب الأعداء، هكذا الإسلام، فهو في نظر هؤلاء الذين يُغالطون ضعيف لا يُريد أن يتوسّع، ولا يُريد أن ينتشر، وليس على أبنائه مُهمّة في الحياة هي الدعوة لله حتى تعمّ الأرض، ذليل يقبع في زاويةٍ من الأرض ينتظر أن يغزو الأعداء أرض حتى تدبّ الحياة في أتباعه... هكذا وبهذه الصورة البشعة في نظر هؤلاء من أهل السوء.

عاد الضعف إلى المسلمين مرةً ثانيةً فالأمـراء والحُكّام رجعـوا إلى اختـلافهم وتفـرّقهم واستعـانـة بعضهم عـلى بعضٍ بـالـطاغيـة النصراني، والـروح المعنويـة انخفضت نتيجة مشـايخ السـوء الذين يُقـدّرون مصالحهم فقط وقبـل كل شيءٍ، وبـدأت غارات الإسبـان تارةً أخرى وأخذت تجوس خلال ديار المسلمين، واضطر المعتمد بن عبّاد حاكم اشبيلية اجتياز بحر الزقاق والتوجّه نحو المغـرب يستنجد بـأمير المـرابطين يـوسف بن تاشفـين للعودة إلى الأنـدلس بجيـوشـه ومسـاعدة المسلمـين، واستجاب يـوسف لدعـوة المعتمد بـل لأنـين المسلمين، ونداء الواجب الإسلامي وانتقـل إلى العدوة الأنـدلسية، وأحبّ قبل أن يخوض الجـولة أن يتعـرّف على الـروح المعنويـة لدى المسلمـين، ورأى أفضـل طـرق المعـرفـة الاستـماع إلى المُـوجّهـين والمُحدّثين الذين مقرّهم المسجد عادةً، فخـرج إلى صلاة العصر في أكبر مساجد قرطبة، وقد علم أن أحد العلماء وهو إبـراهيم بن عبد الملك الباجي يُلقي مُحاضرةً.

انتهت صـلاة العصر واجتمع النـاس، وأمّ الجامـع آخرون أدّوا صلاتهم في غيره، وقد ازدحم الجامـع بالنـاس رغم اتساعـه، وجاء الشيخ إبراهيم وجلس على أريكةٍ، ووضعت حوله أمثـالها من كـلا الجانبين وبدأ الحديث فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على رسول الله، خاتم النبيين وآله وصحبه، ثم أخذ في الكـلام، فكان صوته عالياً واضحاً، وكلامه فصيحاً مُبينـاً، وحديثـه عذبـاً طليقاً،

وبيانه مُؤثّراً جميلاً، ومع هذا فكان يُغالط الحضور ويسير بهم بعيداً عن الإسلام.

تكلّم عن حرية العقيدة، وأطال في تفسير الآية الكريمة ﴿لا إكراه في الدين﴾ وأعلن أن الإسلام لا يُمانع في أن يتّخذ الإنسان أية عقيدةٍ يراها، ويُؤمن بما شاء أن يُؤمن. ثم انتقل إلى أن المسلمين لا يغزون وإنما يُدافعون عن أرضهم فقط إذا ما غُزوا، ويحرصون أن يصلوا إلى مواقع تقيهم غارات غيرهم، فهم مُسلمون مُسالمون، وما عُرف من أمر الجهاد فهو الدفاع عن النفس، وأطنب في ذلك الحديث حتى يظنّ المستمع أن الحضور سيخرجون إلى بيوتهم لا يُكلّمون أحداً خوفاً من الزلل، ولو اعتدى عليهم أحد المارة لأحنوا رؤوسهم حتى ليضنّوا بالبكاء خوفاً من أن يعدّ ذلك شكوى فينجدهم أصحاب الشهامة فيكون قتال. وطال الحديث وكاد الوقت ينتهي، ويوسف بن تاشفين مطرق رأسه يستمع وإن كان يبدو عليه الألم ولولا افتضاح الأمر لقام وصفع الشيخ وقال له: لا تُمت علينا ديننا أماتك الله، غير أنه صبر. وما أن انتهى الشيخ حتى قال له يوسف: هل يحقّ لرجل يُقيم في دار الإسلام أن يجعل لنفسه صنماً ينصبه في ساحةٍ يملكها، ويُقدّم له القرابين، ويعبده من دون الله، ويطوف حوله أمام الناس.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

قال الشيخ : لا .

قال يوسف: هذا ما فهمه المستمعون منك، ولكننا نعرف من أهل العلم أنه لا يسمح أن يكون وثنيون في ديار الإسلام، ولا يصحّ أن يُعبد غير الله، ولا مكان في بلاد المسلمين إلا لأهل الكتاب ومن يتبعهم من مجوسٍ ، وتكون عباداتهم خاصة بهم في بيعهم وأديرتهم وكنائسهم، وهذا ما نُلاحظه في البلدان التي فتحها المسلمون حيث لا يوجد سوى ذلك الصنف الذي ذكرته «أهل الكتاب والمجوس» .

قال الشيخ : لا إكراه في الدين، يا بُنيّ، فاستمع إلى مشايخك وانصت، ولا تحاول أن تُخالف، وتأتي بجديدٍ من عندك فيُضلّلك الله .

قال يوسف: نعم. لا إكراه في الدين. ولا يُجبر الإسلام المرء على عقيدةٍ مُعيّنةٍ، ويترك له الخيار في أن يعبدالله على الصورة التي يرى، ويدين بعقيدةٍ من عقائد أهل الكتاب أو المجوس أما عدا ذلك فلا، فإن شاء اختار منها، وإلا رحل عن ديار الإسلام إلى أي مكانٍ شاء إلى أن يصل الإسلام إليها، وهذا تفسير ﴿لا إكراه في الدين﴾، ولكنكم تُفسّرونها بشكلٍ فيه مُغالطة. وهي تعني عدم الإكراه في عبادة الله، عدم الإكراه في اختيار إحدى العقائد التي تعبد الله، أما الوثنية فلا.

ويبدو أن بعض الناس قد عرفوا يوسف بن تاشفين من لهجته ونبرة صوته فقد سمعوه عند قدومه في المرة الأولى، ورأوه في القتال، وحاولوا أن يُنبّهوا الشيخ غير أن الشيخ تلا بعنف ﴿لا إكراه في الدين﴾ وأراد المتابعة.

قال يوسف: يمكن أن أطرح موضوعاً آخر نستفيد منه - أيها القارىء الفاضل؟

قال الشيخ: تكلّم ولا تُطنب.

قال يوسف: عندما انتشر الإسلام، وقفت دولة الفرس يومذاك في وجهه، كما وقفت دولة الروم، وكما وقف الطغاة جميعاً، وعندما بعث رسول الله ﷺ رسولاً إلى كسرى قتله، أصحيح هذا؟.

قال الشيخ: نعم. صحيح، فما تبغي؟.

قال يوسف: وبعد وفاة رسول الله ﷺ قامت حركة المرتدّين في أرض العرب ووجد المرتدّون سنداً لهم في دولتي الفرس والروم. أصحيح هذا؟.

قال الشيخ: نعم. صحيح، فما وراء ذلك؟

تابع يوسف: فما على المسلمين أن يفعلوا وقد قضوا على المرتدّين؟ هل يتركون الفرس، والروم يُثيرون الفتن ضدّ المسلمين؟ هل يتركونهم يمنعون أي إنسانٍ أن يُسلم، وإن أسلم أحدهم قتلوه

وصلبوه؟ أم ماذا يفعلون؟.

قال الشيخ: يغزونهم، وقد فعلوا، فمن واجب المسلمين نشر الدعوة في سبيل الله، فمن وقف في وجهها قاتلوه، ولا يبدؤونهم بالقتال حتى يدعوهم إلى الإسلام فإن قبلوا فقد اهتدوا وأصبحوا من المسلمين، شأنهم شأن بقية المسلمين في الحقوق والواجبات، وإن أبوا عرضوا عليهم الجزية، فإن قبلوا اكتفى المسلمون بذلك ورجعوا عنهم، ومعنى قبول الجزية، أن يُسمح للدعوة بالانتشار، وتُعطى حرية العمل للذين أسلموا في نشر دينهم دون إكراه، وإن رفضوا الجزية فلا بدّ عندها من السيف بعد الإنذار.

قال يوسف: جزاك الله خيراً، لقد أفدتنا، أي أن المسلمين يُقاتلون الذين يقفون في وجه الدعوة حتى يُسلموا أو يقبلوا الجزية ويسمحوا للدعوة بالانتشار، وهذا هو الجهاد.

قال الشيخ: هذا صحيح، وهذا ما أردته بالضبط.

قال يوسف: فتح المسلمون المغرب ووصلوا إلى ساحل المحيط، وكان بحر الزقاق يفصل بينهم وبين القوط في الأندلس، ويُعدّ البحر مكان حمايةٍ يمكنهم منع أعدائهم من النزول إلى بلادهم، فلماذا يا تُرى اجتاز المسلمون بحر الزقاق وانتقلوا إلى الأندلس، وقاتلوا أهلها، وفتحوها واستقرّوا فيها؟ فهل هذا اعتداء من قبل المسلمين؟.

قال الشيخ: معاذ الله، أن يكون المسلمون معتدين. إنما استنجد فيهم المظلومون فأنجدوهم، وحاول الطغاة منعهم فقاتلوهم، وانتصروا عليهم، وأراد البغي أن يُثير الفتنة على المسلمين فاستقرّوا ليُقرّوا السلم، وينشروا الأمن، ويُعطوا الرخاء.

قال يوسف: إذن لا يحرص المسلمون على الوصول إلى مناطق تحميهم من الأعداء، وتردّ عنهم كيد المعتدين.

قال الشيخ: أبداً، وإنما يُحارب المسلمون الظلم أينما وُجد، ولا تقف في وجههم عقبة من عقبات الأرض، وإنما عليهم أن يُؤدّوا مُهمّتهم في الحياة مهما قدّموا من تضحياتٍ، ومن مُهمّة المسلمين الأساسية رفع الظلم، ومنع الجور، ومقاتلة الشرك، وهذا ما يجب أن تضعه أمام عينك يا بُنيّ، ويجب أن يعرفه الناس جميعاً.

قال يوسف: لو أن قوماً معتدين أغاروا على جزءٍ من أرض الإسلام، فماذا يفعل المسلمون؟.

قال الشيخ: يُصبح الجهاد فرض عينٍ على المسلمين جميعاً أينما كانوا، وفي أيّة بُقعةٍ حلّوا، وإذا ما نال المعتدون من المسلمين كان على النساء من أهل تلك الجهة واجب القتال أيضاً والذود مع الرجال عن حمى المسلمين.

قال يوسف: إذن يُجاهد المسلمون في سبيل الله، ويهبّوا للدفاع عن ديارهم.

قال الشيخ: نعم، يا بني.

قال يوسف: جزاك الله خيراً، ونفع بك.

وشعر المستمعون أن الشيخ كان يُغالط، وقد أحسّ أمام السائل (يوسف) أنه كان يقول من غير تثبّتٍ، وقد تراجع عما كان عليه. وأيقن الحضور أن كلام الشيخ كان يُضعف فيهم روح الجهاد، وأن واجبهم البقاء في ديارهم قابعين فإن داهمهم غزو قاموا لردّه والدفاع عن ديارهم وأموالهم وأعراضهم ليس إلا، لكن الإسلام يأمرهم غير ذلك، يأمرهم بقتال الظلم، ونصر المظلومين، والسير إليهم لتخليصهم مما يُعانون ولو كانوا في آخر الأرض، كما عليهم قتال كل من يقف في وجه الدعوة ومنع الإسلام من الانتشار مهما نأت ديار أولئك البغاة، كما عليهم ألا ينتظروا الطغاة حتى يعتدوا عليهم فيردّوا كيدهم وإنما عليهم أن يسيروا إليهم ويُداهموهم في أماكنهم قبل أن يتحرّكوا، ولو فعلوا ذلك لما تطاول الإسبان ولما ارتفعت لهم راية، ولبقي الأندلس يعيش في ظلّ دوحة الإسلام ويتفيّأ في ظلالها.

لكن إن فهمت حقيقة الإسلام مجموعة فقد بقيت أعداد تنتشر في أمصار العالم الإسلامي الواسعة تبثّ تلك الأفكار الخاطئة، وتُغالط في المفهومات الأساسية للإسلام حتى كادت تعمّ، وأصبح مفهوم الإسلام لدى كثيرٍ من الناس الاستسلام بمعنى السلام، وكان

هذا من جملة أسباب تأخّر المسلمين ووصولهم إلى هـذه الدرجـة من التخلّف والانهزامية والضعف حتى سيطر الأعداء على بلادهم. . .

ولا زال كثير من عامة المسلمين أو ممّن يدّعون المعرفة يـظنّون أن الإسـلام دين السـلام فقط بمعنى الاستسـلام، وليس دين القـوة أيضاً، ودين العزّة والمنعة، والجهاد وسيلة من وسائل الدعوة إليـه. فقـد أراد الشيوعيـون في يومٍ من الأيّـام أن يُغالـطوا على المسلمـين ويـدخلوا عليهم من هـذا البـاب فيكسبـون أعـداداً منهم، فشكّلوا جمعيةً عُـرفت «جمعيـة أنصـار السـلام»، وهـذه التسميـة من بـاب الأضـداد في المعنى، فـأيّ تسميةٍ هـذه، وأيّ سـلامٍ هـذا، أهـو استعمار بلاد التتار وسحق أهلها، أم احتلال بلاد القفقاس وتشريد سكانها، أم اقتحام بلاد تركستان وقتل أبنائها، أم غزو بلاد الأفغان وتـدمير مـدنها وإحراق قـراها، وتشريـد الناس، وتسيـير الدبـابات الروسية على جماجم الأطفال والعاجزين. . . أم ماذا؟.

وجاءت هذه الجمعية لتنشر بين المسلمـين أن الإسلام يـدعو إلى السلام ونشر السلام، ونحن نُؤيّـد فلنتعاون، ولنُـطالب بالسـلام، وكـانوا يـأخذون تـواقيع المغفّلين من المسلمـين دلالةً عـلى التـأييـد للمنظمات الشيوعية.

يجب أن ننتهي من تلك الغفلة، ومن تلك المغالطات، ونضرب على أيدي أولئـك الذين يُغـالطون، وينشرون الأخـطاء بين النـاس

لينـاموا، يجب أن يستيقـظوا الآن ويعرفـوا أن الإسلام دين السـلام وفي الوقت نفسه دين القـوة والعزة والمنعـة، والجهاد في سبيـل الله، ومُجـاهدة الكفّـار والظالمـين وحربهم أينـما كانـوا حتى يزول الـظلم، وينتهي الشرك، ويعمّ العدل، ويسود الإسلام الأرض كلها.



السياسة

وصل الصليبيون البرتغاليون إلى جنوبي جزيرة العرب واحتلّوا عدن عام ٩١٩ هـ بعد أن التفّوا حول إفريقية وسيطروا على سواحل إفريقية الشرقية، وقد ارتكبوا أبشع الجرائم ضدّ المسلمين فما خلت مدينة دون مجزرةٍ منهم، ولا بيت دون جريمةٍ، ولا نجا منهم مركب دون أن يفعلوا الأفاعيل ببحّارته ورُكّابه، فقد أغرقوا سفينةً في خليج عُمان تنقل الحُجّاج من الهند إلى مكّة، وعلى ظهرها مائة حاجٍ حيث أعدموهم جميعاً بعد أن مثّلوا بهم أبشع تمثيلٍ، وأحرقوا مجموعةً من المراكب كانت مُحمّلةً بالأرز، وقطعوا أيدي وآذان وأنوف بحّارتها.

ورغم هذه الأعمال المستنكرة والمُوجّهة ضدّ المسلمين ورغم الروائح الصليبية الكريهة التي تفوح من تلك التصرّفات، والحقد النصراني الدفين الذي يظهر من تلك الأفعال فإن صلاتٍ وثيقةً كانت بين طلائع الصليبيين المستعمرين البرتغاليين وبين دولة الصفويين التي تدّعي أنها مسلمة، ولقد كانت هذه الصلات تبادل في المنافع المادية، والمصالح العسكرية.

لقد أخذ البرتغاليون بضائـع من موانىء الخليـج العربي الشرقيـة ونقلوها إلى أوربا، واستفادوا من المُتاجرة بها، واستفادت دول أوربا كلها من وصول هذه البضائع إليها إذ تعرّفت على جـديدٍ، وعملت عـلى التقليد، ولم يكن في أوربـا بضائـع بعـد تـأخّـر تلـك الـدول يومذاك حتى تنقلها البرتغال إلى بلاد المشرق، وهكذا كان المستفيد دول أوربا عامّةً والبرتغال خاصّةً على حين لم تستفد دولة الصفويين بشيءٍ.

وساعد الصفويون البرتغاليين على دخول مياه الخليج العربي عام ٩٢١ هـ، وفتحـوا موانئهم لهم وجعلوهـا تحت تصرّفهم، ولم يُقـدّم البرتغاليون شيئاً إذ لم تكن لهم إمكانات قتالية بريّة أبـداً ومع ذلـك فقد منّوهم بمساعداتٍ للوقوف في وجه العثمانيين وقتالهم، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً بل سرّهم ذلك القتال بين الجوار، إذن كان البرتغاليون هم الذين استفادوا من تلك الصلات ولم يستفد الصفـويون شيئـاً، وكل ما في الأمر أنهم كانوا أُجراء عند البرتغاليين يتصرّفـون بهم كما يشاءون ويُوجّهونهم إلى الجهة التي يُريدون، وليت الأمر اقتصر على ذلـك إذ كانـوا نعالاً في أرجـل الصليبيـين يـزدرونهم، ويحقّ لهم أن يـزدروهم لأنهم تـركـوا مبـادئهم، وتخلّوا عن عقيـدتهم، وتنكّـروا لإخـوانهم المسلمين في شرقي إفـريقية، وجنـوبي جـزيـرة العـرب، والخليج العربي، والهند.

ولما خاف المماليك من العثمانيين ورفضوا أن يسمحوا لهم بـالمرور

من بلادهم لمنازلة طلائع الصليبيين من البرتغاليين، سأل المماليك الصفويين عن سرّ علاقتهم مع البرتغاليين وتنكّرهم للمسلمين أجابوا: إنها السياسة نتعامل ونتعاون مع البرتغال كدولةٍ وكأُمّةٍ ونترك لهم الخيار في التصرّف داخل بلادهم وفي المناطق التي يُسيطرون عليها بغضّ النظر عن عقيدة سكانها، إنّ البرتغال ما دامت قويةً ولها مناطق نفوذٍ واسعة، وتملك إمكاناتٍ ضخمةً، وعندها أسلحة نارية فإننا نتعامل معها.

وعلى هذه السياسة سار الصليبيون الذين جاءوا بعد البرتغال يُذيقون المسلمين مرّ العذاب، يحتلّون بلادهم، ويغتصبون أفضل أراضيهم، ويضعون أيديهم على أملاكهم، وينتهكون حرماتهم، ويُشجّعهم على هذا أنهم يجدون في الوقت نفسه من المسلمين ـ مع الأسف ـ من يتعامل معهم، ويمدّ لهم يد العون، ويضع بلاده تحت نفوذهم، ويكون عبداً أميناً لهم يُنفّذ مُخطّطاتهم، مُقابل أن يحموه، ويستذلّ لهم كي يبقوا على ذلك، وإذا شعروا أنه قصّر وجدوا من يزاود عليه بتقديم خدماتٍ أفضل دون أن يبالي أحد بشأن الرعية ورأيها إذ أفقدها الذلّ الرأي وأعدمها الطيش الصواب.

وعلى هذا سار خلفاء البرتغاليين وخلفاء الصفويين وأمثالهم باسم السياسة وباسم مصلحة الأُمّة وما هي إلا أهواء أفراد ومنافع أشخاص يُحبّون المنصب والجاه ويضعون كل شيءٍ في خدمة ذلك، القيم، الأرض، الأمة.

فـإذا أراد المسلمـون النهـوض فـلا بـدّ لهم من اجتثـاث جـذور السياسة الصفوية لمحاربة السياسة البرتغالية المتنفذة رغم المغـالطات الكثيرة التي تقدّم أحياناً من علمٍ، وتطوّرٍ، وسياسةٍ، وأممٍ متحدةٍ و. . . .



الزعامة المزيّفة

عندما احتلّ البرتغاليون عدن ٩١٩ هـ، رفض أهلها هذا الاحتلال، وقاوموه بما يملكون لكن استطاع البرتغاليون أن يقهروا السكان بما يحوزون من أسلحةٍ ناريةٍ حديثةٍ، واضطر القسم الأكبر من العدنيين إلى ترك موطنهم واللجوء إلى الأراضي المجاورة لبلدهم حيث عُرفوا هناك باسم (اللاجئين)، وكانوا يحصلون على المساعدات من جيرانهم ومن جهاتٍ أخرى لتأمين حياتهم المعاشية، وأُجبر القسم الآخر من العدنيين على الخنوع والبقاء في ديارهم تحت عصا الذلّ وسيف الإرهاب مقهورين على ذلك ومُجبرين.

حاول البرتغاليون التعاون مع جيران عدن فلم يُفلحوا، بل ازدُروا من قبل السكان واحتُقروا، إذ لهم ماضٍ مع المسلمين في الأندلس، وهم يختلفون عن أهالي عدن وسكان المناطق المجاورة لها كلهم عقيدةً وجنساً، فأهل عدن وما جاورها مسلمون عرب، والمغتصبون نصارى برتغاليون، والعداء قائم والحروب الصليبية لا تزال قائمةً وإن لبست ثوباً جديداً من الاقتصاد.

حرصت الدول المجاورة وخاصةً مصر التي يحكمها المماليك

يـومـذاك وتبسط سيـطرتهـا عـلى حـوض البحـر الأحمـر أن تُقـاتـل المُغتصبين وتطردهم ولكنها كانت قد هُزمت أمامهم في معركـة «ديو» البحـرية قـرب شواطىء الهنـد عام ٩١٥ هـ، وحـاولت الإمـارات المجاورة لعدن أيضاً غير أنها قد باءت بالفشل في عدّة جولاتٍ.

حاولت البرتغال أن تمدّ قنواتٍ بينها وبـين حُكّام الـدول المجاورة عن طريق المال، وعن طريق الدعم بالسلاح، وعن طريق المصالح وقد نجحت وبدأ التعاون غير أنه بعيد عن أعين السكان وفي سريةٍ تامّةٍ إذ كان الشعب يرفض هذا التعاون رفضاً تاماً ويأبى ذلـك أشدّ الإباء، إذ ليس للشعب مصلحة في ذلك وإنما هـدفه طـرد الدخيـل المغتصب، البرتغاليين الصليبيين الأعـداء قديمـاً وحديثـاً والذين مـا جاءوا إلا حقداً على الإسلام وتشفّياً من المسلمين راغبين في إذلالهم وإبادتهم إن استطاعوا بينما كان لحكام ذلك العصر مصالح يهدفـون من ورائها القوة، والدعم، والمال، والتمكين.

أظهـر المسؤولون في تلك الـدويلات أنهم يُعـادون البرتغـاليين، ويـرفضـون التعـاون معهم، ويـأبـون الجلوس معهم عـلى طـاولـةٍ واحـدةٍ، أو يضمّهم معاً مجلس واحـد، والواقـع غـير هـذا يلتقـون سرّاً، ويجتمعون معاً، ولكن يقولون للشعب ما يُحبّه الشعب ويُوافق عليه، ويفعلون بعد ذلك ما يروق لهم، وزيادةً في المغـالطة وتعميـةً على الشعب فإن البرتغاليين يُهاجمـون المسؤولين عن تلك الـدويلات العـربيـة القـائمـة التي تُجاور عـدن ويتهمـونهم، وفي خضم هـذه

الأحـداث يعيش الشعب في دوّامـةٍ ولا يعـرف أين يسـير، ولا أين الحقيقة؟

لم يجـرؤ واحـد من المسؤولـين أن يُعلن عن ضرورة الاعـتراف بالواقـع الذي هـو الصلة بين المغتصبـين والمسؤولين عن الدويلات، وأنهم قد اعترفوا باستعمار البرتغاليين لعدن، وأقاموا فيها حكم أصبح كإحدى الحكـومـات المـوجـودة في المنـطقـة وأن من المصلحـة كـل المصلحة أن يكون التعاون على هذا الأساس، وأن يقـوم السلام في هذه المنطقة وينتهي وضع التـوتر القـائم فقد كفى البقعـة حروبـاً. وقد طال الوقت دون ظهور هذه الجرأة الكافية لإعلان الخيانـة فكل يخشى الشعب ويخاف على مركزه.

كان المخطط الصليبي يقضي أن يتقدّم كل حاكمٍ خطوةً لذا كثر الذين توالوا على الزعامة، وكثر عدد الذين أيّدتهم الدول الصليبيـة ليقطعوا خطوةً أطول أو يسيروا شوطاً فقد طـالت المدة وزادت عـلى خمسـة عشر عامـاً. ولكن برزت فكـرة جديـدة وهي أن يتولّى حـلّ المشكلة أحـد أبناء عـدن بالـذات من الذين يعيشـون خارج مـدينة عدن ليكون بعيداً عن البرتغـاليين رغم أنهم أحـد أطراف اللعبـة، ولتكون له الحرية. وبعد دراسات المُشرّدين وشبـابهم وقع الاختيـار عـلى شابٍ لم يتجـاوز الثـلاثـين من العمـر يُـدعى «عبـد الـرؤوف أفندي».

كان عبد الـرؤوف في الأصل من صنعـاء، وقدم جـده إلى عدن حيث نشأ عبد الـرؤوف وكان بـين الذين شُرّدوا فـانتقل إلى منـطقة «العوالق» وهناك درس. ولما وقع الاختيار عليه ليقوم بالمهمة عرض عليه سلطان «العوالق»، وهو الرجل البارز بين السلاطـين يومـذاك أن يختار شباباً يثق بهم، ويقومـوا على تـأسيس مُنظّمـةٍ تتولّى مُهمّـة العمـل لطرد الـبرتغاليـين المغتصبين، وتقـوم السلطنات بـدعم هذه المُنـظّمة ومـدّها بمـا تحتاج إليـه، فإن تبنّي أبنـاء البلد مُهمّة العمـل أفضل من غيرهم، وخاصةً أمام المحافـل الدوليـة إذ أنهم يُطالبـون بحقّهم المغصـوب ويسعون للعـودة إلى وطنهم المسلوب فلن يلومهم أحـد، وأتعهد أنـا سلطان «العوالق» بتـأمين الإمكـانـات الـلازمـة الضروريـة والمبـدئيـة للعمـل، وسـأوحي لأعـواني ومن يُؤيّـدونني بالانضمام إلى المنظمة أو دعمها على الأقـل، وإنك يـا عبد الـرؤوف إن وُفّقت في هذا العمل فسيكون لك شأن كبير ومركز عظيم إضافةً إلى مـا تتمتع بـه من إمكانـاتٍ ماديـةٍ حيث تصل إليـك التبرعـات بسخـاءٍ والمعونـات بمبالـغ ضخمةٍ هـذا بجانب السلطة العسكـريـة والأوامـر التي تُصدرهـا فتُنفّذ مبـاشـرةً حيث يكـون المقـاتلون تحت إمرتك ورهن إشارتك.

وافق عبد الرؤوف على العمل، وأخذ الضوء الأخضر للمبـاشرة من الزعيم العربي سلطان العوالق، على أن تحلّ منظمته محلّ مُنظّمة مفتي عـدن من غير صـدامٍ، وبشرط ألا يخرج عن رأي سـلاطـين

الدويلات، وهكذا كان.

بدأ عبد الرؤوف اللعبة من جديد، أصبح اسمه «ياسين» وانتشر حتى لم يعرفه أحد إلا باسمه الجديد، ادّعى النسب الحسيني، أسّس مُنظّمة لتحرير عدن من المغتصبين البرتغاليين، وأنشأ فصائل للقتال فانخرط في صفوفها كثير من العدنيين المُشرّدين، وبدأت تخوض بعض المعارك، وتدخل إلى الأرض المحتلّة وتقوم ببعض العمليات الناجحة، فارتفعت أسهم المُنظّمة، وبرز «ياسين» وأصبح في مصاف القادة، وغدا الأمل كبيراً عند العدنيين المُشرّدين بقرب يوم العودة، والمقيمين بقرب الخلاص من ربقة الاستعمار.

أخذ عبد الرؤوف يُنادي بحمل السلاح، وهو الحلّ الوحيد لإنهاء المشكلة، وهو اللغة التي يفهمها العدو، ولا يقبل المهادنة، ولا المساومة، ولا المفاوضة بل لا يمكنه أن يلتقي مع المغتصبين المجرمين. وبالمقابل فقد شنّ العدو عليه وعلى المنظمة حملةً إعلاميةً شعواء إذ اتهموه ومنظمته بالتخريب و. . . . وتدفّقت عليه أموال التبرعات والمعونات وأصبح على مستوى السلاطين العرب، ووصل إلى المرحلة التي وصلوا إليها.

شنّ البرتغاليون غاراتٍ على مُخيمات اللاجئين العدنيين في جهات «الحواشب» وقاموا بعددٍ من المذابح الرهيبة والجرائم المنكرة وذلك

لتبدأ مرحلة جديدة من مـراحل المشكلة، فـانتقل مقـرّ المنظمـة إلى «الصبيحي»، وانتقلت مـراكـز الفصـائـل المقـاتلة وتـوزّعت عـلى السلطنات، فخفّ ضغطها على البرتغاليين.

ضغـطت الـدول الأوربيـة التي قـوي نفـوذهـا في المنـطقـة عـلى السـلاطـين وطلبت منهم إنهاء المشكلة فعقـدوا اجتـماعـاً في «تعـز» وقرّروا الاعتراف بالوضع البرتغالي في عدن على أن يتولّى أمر إعلان ذلك الزعيم العدني «ياسين».

انتفض العدنيون الذين لا يزالـون يُقيمون في مـواطنهم، ولعبت هذه الانتفاضـة دوراً كبيراً، فـدعا الأوربيـون إلى عقد مؤتمـرٍ عالمي لإحـلال السـلام في المنـطقـة، وإنهاء المشكلة، وتلعثم السـلاطـين أيـوافقون أم لا؟ وانيـطت القضية بـالزعيم العـدني «ياسـين» الذي أعلن أنه مستعد لحضور المؤتمر العالمي الذي دعت إليـه دول أوربا، وأنـه يتحدّى الـبرتغال للمـوافقـة عـلى الحضـور، وهي التي تتمنّـاه وتـدعو لـلاعتراف بكيـانها في عدن، فتمنّعت تمنّـع الـراغب لإتمام اللعبة وإخفائها عن الشعب، وتقويـة موقف «يـاسين» وإبـرازه على أنه هو الذي يدعو، وهي التي ترفض، أي أن المتمنع هو المـوافق، والراضي هو الرافض. . .

أعلن سلطان «لحج» الذي كان يعدّ عدن جزءاً من أرضه أنه قد تخلّى عنهـا، وأن أهلهـا أحـرار يحلّون أمـورهم بـأنفسهم، وبـذا

أصبحت عدن وحدها أمام البرتغاليين دون سندٍ أو دعم. وفي هـذا الوقت وقفت البرتغال تتفرّج عـلى إخراج المسرحيـة لإنهاء المشكلة. فقـد انتهى دورها، وجـاء دور غيرهـا، ودور البـطل لا ينتهي حتى حلّ المشكلة.

أعلن الزعيم «ياسين» أن لأهل عدن حكومـة خاصـة، وتعامـل معها السلاطين على أنها حكومة شرعيـة قائمـة. ثم صرح أنه عـلى استعـداد للاعـتراف بالكيـان البرتغـالي، وبذا أصبحت حكـومتـان إحـداها لأهـل عدن المشرّدين ولهم بعض أجـزاء من مـدينـة عـدن والثـانية للبرتغـاليـين المغتصبـين، ولهم الجـزء الأكـبر من عـدن. أو نستطيع أن نقول: إن المنطقـة العربيـة تشمل منـطقتين متبـاعدتـين هما: عدن القديمة في الشرق وتشرف عـلى الميناء القـديم في جزيـرة سـيرة وعدن الصغـيرة في الغرب، وبينهـما المنطقـة البرتغـاليـة حيث مدينة التواهي، وخليج التواهي إذ يوجد الميناء الجديد.

استمـرّ هذا الـوضع حتى جـاء العثمانيـون عام ٩٤٥ هـ وطـردوا البرتغاليين من المنطقة.

وقف أهـل عدن يُفكّـرون بعد الـدور الذي لعبـه ياسـين ومثّله عليهم. منهم من يقول: بقي ياسين يُغالط علينا حتى وصل بنـا إلى ما كنّا نخشاه، كنّا نرفض كل هذه الحلول وجاء ليُوافق عليها. كان يقول: نرفض، حتى صدّقناه ووثقنـا به، فلما أسلمنـاه قيادنـا قال:

نوافق. أعطيناه القيادة ليبيع قضيتنا، ليبيع أرضنا، ليبيعنا، يا ويل المغالطات، وما أغبانا نحن.... لعب علينا، وبعدها بدؤوا يبحثون في أصله، ويُفسّرون ألاعيبه الماضية، وتمثيله و..... ولكن فات الأوان.

أما أعوانه فيقولون: إن الطرق كلها مسدودة، والحلول التي طُرحت قد أُجهضت أو فشلت، وليس أمامنا سوى ما تمّ.

ما أشبه اليوم بالبارحة!!



العصبية

فتح المسلمون البلدان، ومنحوا الحرية الدينية للناس جميعاً، فأسلم كثير من السكان رغبةً وحبّاً في الإسلام بعدما عرفوا الحقيقة ولمسوا سلوك أتباعه، وبقي عدد على عقائدهم السابقة سواء أكانوا يهوداً أم نصارى أم مجوساً وهؤلاء الذين لهم الحرية الدينية - كما سبق أن ذكرنا - وعاش أهل الكتاب هؤلاء في أمنٍ ورخاءٍ لم يعهدوهما من قبل. واستمرّت حياتهم تلك لا يُعكّر صفوها مُعكّر حتى كانت الحروب الصليبية إذ جاءت الغزوات الأوربية وأخذت تحرّض النصارى وتُمنّيهم فأطاعها أكثرهم، وظنّوا أن دور الإسلام قد انتهى وأقبل الصليبيون فتحرّكت عندهم شهوة التسلّط فقاموا ضدّ المسلمين وارتكبوا أعمالاً مُنكرةً، غير أنهم لم يلبثوا أن رأوا راية الصليب تندحر ويُطرد أهلها من البلاد، ورجعوا تحت رحمة المسلمين، وتوقّعوا أن تكون عمليات انتقامٍ إلا أن المسلمين كانوا رحماء، فلم يثأروا، ولم يُعاقبوا، وإنما أظهروا الرحمة والإنسانية فندم النصارى على ما بدر منهم، وطلبوا العفو فحصلوا عليه.

عادت الحياة طبيعيةً إلى البلدان الإسلامية حيث يعيش كل أتباع

الديانات بحريةٍ وطمأنينة وإن نغّص الحياة علـى الناس جميعـاً لزمنٍ محدودٍ الغزو المغـولي، وما أن زال ذلـك الغزو، وانصهـر المغول في المجتمع الإسلامي حتى رجعت الحياة إلى رتابتهـا وهنائهـا، غير أن الخط البيـاني لتقدّمهـا قد أخـذ يهبط، وينحـدر معـه المسلمـون لما قصّروا في أمر دينهم، وما أحدثوه في حياتهم. وفي الوقت نفسه كان الأوربيون قد أخذوا بأسباب القوة، وسلكـوا سبيل النهضـة فبدؤوا يُغيرون على المسلمين ويدفعهم حقدهم الدفـين، ويُسيّرهم تعصُّبهم الصليبي، واستطاعوا في النهاية السيطرة على أكثر بلاد المسلمين.

انتعشت أحلام نصارى بلاد المسلمين، وترعرعت جـذور روابط العقيدة مع الأوربيين فساعدوهم وعدّوا أنفسهم أتباعاً لهم، وقطعوا صلتهم مع المسلمين، واعتبروهم أعداءً لهم، وفي الوقت نفسه فقد قدّمهم الأوربيون وفضّلوهم عـلى بقية السكـان ومنحوهم الأرض، وسلّمـوهم المنـاصب، وحسبـوهم كـالأوربيـين أنفسهم، وانتفش ريشهم حتى ظنّوا أنفسهم أسمى ممن سواهم، وأنهم أصبحـوا أهل الحلّ والعقد.

خـطّط الأوربيون لتهـديم عقيـدة المسلمـين وأوكلوا إلى نصـارى بلاد المسلمين مُهمّة القيام بجزءٍ من هذا المخطط، وهو الـدعوة إلى العصبيـة العـرقيـة لتحـلّ محـلّ العقيـدة، فقـامـوا يـدعـون إليهـا ويُغالطون، ولما كان المسلمون يعيشون في مرحلةٍ من الجهل لذا فقد طُليت هـذه المُغالـطة أو هذه اللعبـة على بعضهم فحملوهـا وبدؤوا

يسعون لنشرها، ومحاولة تعميق جذورها في المجتمع، ومع انتشارها وكثرة الذين حملوها إلا أنها بقيت سطحيةً لا جذور لها تستند عليها.

بدأ دعاة العصبية وهم من النصارى بادىء ذي بدءٍ ومن الفئات غير المسلمة يطرحون فكرة الرابطة التي تربط الناس بعضهم إلى بعض وتجعل منهم مجموعةً مُتماسكةً تحرص أن تُدافع عن كيانها وتحمي ذمارها. ومن المعلوم أن العقيدة هي التي تُشكّل من أبنائها أمةً واحدةً لها كيانها ولها مُقوّماتها ذلك لأن العقيدة مستقرّة في القلب حيث الشعور والعواطف والحمية، والأمل والغاية. ومن العقيدة تصدر الفكرة والنظرة إلى الحياة، والقيم كلها، والشريعة التي تُنظّم أمور الحياة كلها. والإسلام عقيدة لها نظام يشمل كل جوانب الحياة. طرح النصارى فكرة رابطة الجوار لتحلّ محلّ آصرة العقيدة وبدؤوا يبحثون عن العلاقات التي تشدّ الناس بعضهم إلى بعض ورأوا أن علاقة السكن هي أهم رابطةٍ وغالباً ما يكون الجوار من أصلٍ واحدٍ، ويتكلمون لغةً واحدةً وهاتان الصلتان (الجنس واللغة) هما عاملا تكوين الأمة الواحدة، ولا بدّ من المغالطة كي يكون هذا الكلام مقبولاً.

ادّعى النصارى أنه لا علاقة تربط المسلم العربي مثلاً مع المسلم في أندونيسيا، ولكن هناك صلة يومية وعلاقة دائمة بين المسلم العربي وجاره النصراني أو اليهودي أو أيّاً كانت ملّته، فهما يعيشان

معاً ويتبادلان شؤون الحياة سواء أكانت تجارةً أم صناعةً أم زراعـةً، يُدافعان عن المأوى المُتجاور وعن المصلحة المتبادلـة، يجنيان الـرزق ويتقاسمان المنفعة. يُغالطون في أنهم يأخذون جانبـاً واحداً ويهمـلان جـانبين. يُلحّـون عـلى حقّ الجـوار، ويُهملون حقّ العقيـدة، وحقّ صلة الرحم. الجار له حقّ الجوار ورسول الله ﷺ يقول: «من كـان يُؤمن بالله واليوم الآخـر فليُكرم جـاره»، ويقول: «مـا زال جبريـل يُوصيني بالجـار حتى ظننت أنه سيـورثه» فنحن نُؤمن بحقّ الجـوار، ولكن الجـار المسلم لـه حقّـان حقّ الجـوار وحقّ العقيــدة، والجـار المسلم ذو صلة الرحم له ثلاثة حقوق: حقّ الجوار، وحقّ العقيدة، وحقّ صلة الــرحم، وليس هنـاك من صلة رحمٍ بــين أصحــاب عقيدتين إذ لا زواج بينهما، ولا توارث.

لست أدري كيف تكون رابطة قوية بين فريقـين كل منهـما يُؤمن بغـير ما يعتقـد الآخـر، ويستسخف رأي الفـريق الثـاني، وليس في الواقع رأيه وإنما عقيدته، فـالمسلمون يُؤمنـون بنبوة عيسى بن مـريم عليه السلام، ورسالته، والإنجيل الذي أنـزله الله عليـه، ويُؤمنون في الوقت نفسه أن الإنجيل قد لحقه التحريف والتبـديل عـلى أيدي الرهبان، وأن الإنجيل واحد لا عدّة أناجيل. أما النصارى فيُؤمنون بألوهية المسيح عليه السلام وأنه قد صُلب. ويُنكر المسلمون صلبـه ويستغربون قبول صلب إله، وجمع الأقانيم الثلاثة في أقنومٍ واحدٍ. أمـا النصارى فـلا يُؤمنون بنبـوة مُحمّدٍ عليـه الصلاة والسـلام وإنمـا

يعدّونه دعياً، وبالتالي يُنكرون أن يكون القرآن الكـريم كتابـاً مُنزّلاً من عند الله، وإنما يعدّونه من إنشاء مُحمّدٍ عليه الصلاة والسلام.

إذا كان هذا التباين العظيم في العقيـدة، ومن العقيدة تنبـع كل منطلقات الحياة: القيم، الأخلاق، المجتمع، المفاهيم، الاقتصاد، السيـاسة، فكيـف يكـون اللقاء عـلى أقـوى مـا يكـون من الـروابط حسب رأي أصحاب العصبيات؟ فهذا ضرب من المستحيل.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فالأسس الذي تقـوم عليه الأمم إنمـا هو المنهـج والتشريـع، وإذا كان هـذا ينبـع من العقيـدة فعـلى أيّ شيء تقـوم العصبيـة؟ فالـواقع أن العصبيـة فكرة عـاطفية تقـوم على بثّ روح الحماسة والاعتزاز بالقوم، كما يفتخر الصبية الصغار بآبائهم.

والواقع أن طـرح فكرة العصبيـة إنما القصـد منها إحـلالها محـلّ الرابطة الدينية، في مُحاولةٍ لإفساد العقيدة التي تجعل المجتمع المسلم مُتماسكاً بعضه مع بعضٍ، وتنطلق منها فكرة الجهاد وتـرفع الـروح المعنوية القتالية لدى المسلمين، وهذا ما سبّب هزيمة أعداء الإسلام في كل معركةٍ خاضوها مع المسلمين على مدار التاريخ.

ولو كانت مُغالطة العصبية من قبل النصـارى لهان الأمـر وأمكن ردّها بسرعةٍ ولكن المشكلة أنه قد حمل هذه المغالطات أناس ينتمون إلى الإسلام ويُريـدون أن يتحرّروا منـه لأنه عقبـة بالنسبـة لهم أمام شهواتهم، وأمام مصـالحهم وأمام طغيـانهم يحول بينهم وبينهـا، وقد

استطاع هؤلاء أن يُؤثّروا نتيجة نفوذهم ونتيجة تطلّع آخرين إلى الشهوة والمصلحة والهوى والرغبة في التحرّر من كل ما يُقيّدهم من التفلّت، وبسبب الجهل المنتشر، وعدم المعرفة، والبعد عن الإسلام.

ولنرجع بلمحةٍ إلى التاريخ لننظر في صدق ادعاء النصارى من كذبهم، لقد كانوا يعيشون في ظلّ دولة الإسلام في أمنٍ وطمأنينةٍ على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وكنائسهم، وبيعهم، ما دام أبناء عقائدهم في ضعفٍ، فإذا ما قويت شوكة إخوانهم في الدين بل شوكة أيّ عدوٍّ للمسلمين بدت البغضاء من نفوسهم، وظهر حقدهم وقاموا يدعمون أعداء المسلمين، ويمدّونهم ويتآمرون معهم، ويتخلّون عما كانوا يُسمّونه «الوطن» أيام عزّ المسلمين وقوّتهم، لقد حدث هذا أثناء الحروب الصليبية، وأيّام الغزو المغولي، وعندما جاء الاستعمار الصليبي الحديث، وفي كلّ مرّةٍ يضعُف فيها المسلمون يُنسى فيها الوطن. وعندما تعود القوة للمسلمين ينسى المسلمون أيضاً غدر أهل الكتاب، ويعفون عنهم - مع الأسف. إذ لو نالوا جزاء غدرهم وخيانتهم مرّةً لما عادوا إلى الجريمة مرّةً ثانيةً.

ولقد حمل أهل الكتاب في المرحلة الأخيرة فكرة الوطن والتمسُّك بها، والقوم والتعصُّب لها لتهديم الرابطة الإسلامية لا للحصول على العفو من المسلمين وطلب الرحمة منهم، لأن المسلمين لا يزالون

في ضعفٍ، وأهل الكتاب لا يزالون في قوّةٍ، ونادوا بها بين المسلمين وحاولوا جرّهم إليها بكل الوسائل لا من بُناة أفكارهم فقط وإنما بوحيٍ وتوجيهٍ أيضاً من الصليبيين المستعمرين وبمكرٍ وتخطيطٍ. ومن هذا المنطلق تقوم فكرة «الوطنية» و«القومية» في أمصار العالم الإسلامي.

وإذا كان اليهود قد صاغوا الفكر الرأسمالي لتكون لهم الغلبة بما يملكون من وسائل الربا، والاحتكار، والغش، والعهر، والإغراء فقد اخترعوا أيضاً الفكر الاشتراكي والشيوعي ليبقى الناس في خصامٍ ولينقسم العالم إلى فريقين مُتصارعين ومن هذا الصراع يستفيد اليهود من مدّ الطرفين والربح من كلا الجانبين، وإضعاف القوتين وإقامة الملك المزعوم لبني يهود، ويمكن أثناء الطريق تحريض أي فريق أو كلاهما لضرب أيّ جبهةٍ أو عقبةٍ تعترض السبيل أو تقف في وجه اليهود، وربما كان الزمن الذي نعيش فيه أو من ظهور الإسلام إلى اليوم لا يجد اليهود عقبةً في وجههم إلا المسلمين أو يجدونهم أكبر عقبة لذا فإنّ طرفي الفكر اليهود أو صنيعة العقل اليهودي الرأسمالية والاشتراكية قد وُجهتا لضرب المسلمين ووُضعت لها مختلف الوسائل لهذا الهدف.

وإذا كان نصارى الغرب قد أخذوا بمبدأ الرأسمالية وحاربوا الإسلام بها بطرقٍ شتّى فإن نصارى الشرق الأوربي قد أخذوا في المرحلة الأخيرة بمبدأ الاشتراكية، وحاربوا الإسلام بها، إذ قسّموا

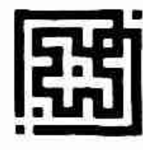
المجتمع إلى طبقاتٍ، وحرصوا على إيجاد رابطة بين هذه الطبقات لتحلّ محلّ الرابطة الإسلامية، فادّعوا أن العمّال طبقة واحدة لها مصالحها، ولها مطالبها التي يجب أن تقف صفّاً واحداً للمطالبة بها وللحصول عليها، وهذه المصالح هي الرابطة بينهم، وأن أصحاب المعامل طبقة لها تطلّعاتها ولها أهدافها التي تسعى إليها، وهي تتباين مع مطالب العمال لذا فالصراع قائم بين الفريقين حتى ينتصر أحدهما على الآخر، ومن انتصر سحق الطرف الثاني بالآلة التي هي السلطة، ويدّعي الشيوعيون أن الرأسماليين أو أصحاب المعامل قد استعملوا هذه الآلة لسحق العمال، فنادوا العمال وجمعوهم للسيطرة على الحكم لسحق الرأسماليين، وقد تمكّنوا من استلام السلطة باسم العمال فأمّموا المعامل وعدّوها ملكاً للدولة التي نسبوها إلى العمال، ولكن رجال السلطة لم يلبثوا أن أصبحوا يتملّكون كل شيءٍ ويحكمون باسم العمال، والعمال في معاملهم لا ينالون شيئاً، ولا يحصلون على شيءٍ إلا من عرق جبينهم، وإذا ما تلفّظوا بكلمةٍ عدّهم الحكّام أعداءً للدولة، وأنهم يُوجّهون من قبل الرأسمالية.

وعدّ الشيوعيون ومن يتبع بهم من الاشتراكيون أن الرأسمالية هي نتاج الدين، وأن الدين يُخدّر الشعوب كالأفيون، وأن النظام الاشتراكي هو النظام الاقتصادي الأمثل، ولا نظام يصلح سواه، فالشيوعية إذن تُحارب الإسلام من عدّة نواحٍ: تُحاربه دعايةً فتُعلن أنه أفيون الشعوب، وأن الرأسمالية نتاجه، وتُحاربه نظاماً إذ تُحلّ

نظاماً مكانه، وتُحاربه بجعل رابطة المصلحة والطبقة مكان الرابطة الدينية، وتحاربه بإثارة فئةٍ على أخرى واستمرار الصراع في المجتمع، وتعمل على ذلك بكل إمكانات وطاقات دولةٍ كبرى من أكبر دول العالم.

والمشكلة أنه ليس نصارى المشرق هم الذين حملوا هذه الأفكار فقط وإنما نشروها بين المسلمين، وبالأماني والمُغالطات أخذها بعض المسلمين وأخذوا يُروّجونها ويعملون على الدعاية لها، ونتيجة الجهل والبساطة، والإغراء وحبّ الزعامة فقد قبلها أناس آخرون، فتاه من تاه، وضلّ من ضلّ.

لقد ولّدت عصبية الطبقة والعصبية الحزبية مغالطاتٍ كثيرةً في المجتمع الإسلامي.



الماسونية

الماسونية حركة يهودية سرية تعمل على تهديم الأديان كلها، وتحطيم القيم جميعها، لتتمكّن من إقامة حكومةٍ يهوديةٍ على أنقاض هذا كلّه، وتتخذ للوصول إلى ذلك الوسائل كلّها بغضّ النظر عن مشروعيتها، فالربا، والاحتكار، والإغراء، وتأمين الشهوة، والكذب، والخداع، والفساد، والمخدرات، والقتل، وإثارة الحروب كلها وسائل تستخدمها لتحقيق أغراضها.

ولعلّ أكثر سهام الماسونية سُمّاً إنما يُوجّه إلى الإسلام وإذا كان بعض هذه السهام يُوجّه إلى النصرانية فإنما تعمل الماسونية جهدها لتسخير النصرانية في خدمتها بتوجيهها ضدّ الإسلام إضافةً إلى حقد الصليبية على الإسلام وبذا تلتقي سهام الطرفين إضافةً إلى سهامٍ أُخرى ضدّ الإسلام، فالنصرانية أصالةً وبتسخيرٍ من الماسونية تعمل للفتك بالمسلمين.

وللماسونية طريقة خاصة تتخذها لرمي الناس في شباكها، وهي طريقة التضليل إذ تدّعي فيما تنشر أن زعماء العالم من أتباعها وأن رجالات الدنيا العظماء الذين مضوا كانوا من أعضاء محافلها، وما

داموا قد انتهوا فليس هناك من يملك الـردّ والتكذيب، وأن كـل ما حـدث من حركـاتٍ هزّت الـدنيا إنمـا هي من أفعالهـا، وأنها كانت وراء إثـارة الحروب، وتحقيق النصر لهـذا الطرف دون ذاك و. . . . حتى يتوهّم القارىء أنه لا يرتفع امرؤ إلا إن كان ماسـونياً، فيُقبـل للانضمام إليها أصحاب المصالح وذوو الأطماع ومحبّو المنـاصب، وما أكثرهم. وما دام لا يتمّ شيء دون تخطيطها ولا يحدث إلاّ بتنفيـذها فالأولى والخير كل الخير أن ينقاد الرجل لأوامرها ويسير وفق مـا يُملى عليـه، هي حكومـة العالم الخفيـة، وزعماء العـالم أحجار عـلى رقعة الشطرنج تحرّكهم جميعاً بإشارتها وينصاعون تبعاً لأوامرها، ومـا أكثر أمثـال هذه الكتب حتى الكتب التي ضـدها فـإنما هي من عملهـا، تعمل الدعاية ضدّها لمصلحتها.

فالماسونية تُضلّل الناس حيث تُشكّكهم بالطيبين إذ تنسبهم لهـا، فتُغالط بذلك كثيراً، وتُضخّم دورها جداً وبـالتالي دور اليهـود حتى تُضعف الرجال، ويُصاب بعضهم باليـأس والقنوط من عمـل شيءٍ أمام هذا العملاق العظيم لذا لا يصحّ نقل شيءٍ من كتب الماسـون لما فيه من مُغـالطاتٍ، ولا يتمّ التـوثيق منها لمـا في ذلك من خـطرٍ. وبعد هذا تـدّعي أنها لا تهتم بالـدّين ـ زوراً وكذبـاً ـ لينضمّ إليها، وتجذب لها أصحـاب مختلف الديـانات، وتجعـل شعارهـا الحـرية ـ الإخاء ـ المساواة.

ولقد غرّرت الماسونيـة بالكثـير، ووقع في حبـالها ـ مـع الأسف ـ

بعض الـرجـالات والمصلحـين الـذين كنّـا نـظنّ بهم خيــراً، لقـد أخـطؤوا، بعضهم عن علمٍ وراء هدفٍ يسعـون إليه وبعضهم عن جهـلٍ وراء المغالـطات التي طُرحت، ولكن هـذا لا يمنع من قـول الحق، والقول بخطإ فلان فليس هناك من عصمة بعد أنبياء الله.

نتائج المغالطات

لقد ضاع في تيه هذه المغالطات التي ذكرنا بعضها كثير من الناس، فأعداد من المسلمين الحريصين على عقيدتهم يتساءلون: هل نحن نعيش في دار الإسلام أم في غيرها؟ هل يصحّ موالاة أعداء الله وإقامة أحلافٍ معهم أم لا؟ أناس قالوا بهذا، وآخرون قالوا بذاك وفي كلا الفريقين من يقول بالعلم. . . ؟.

هل هذه مؤسسات إسلامية أم تحمل عنواناً فقط؟ أناس يثنون ونظنّهم صالحين ولا نزكي على الله أحداً، ولكن الآخرين لا يريدون وليس لهم مصلحة؟ مع أي الفريقين وجه الصواب؟.

هل الزهد مقبول؟ أهو الفقر أم هو عدم التمسّك بالدنيا؟ وما هو الفرق بين الزهد والتصوّف؟.

إن الكثير من هؤلاء يريدون أن يتلمّسوا الطريق فلا يعرفون لذا كثرت الفئات وتعددت الجماعات، وتعصّب كل لرأيه، وما منع الناس أن يعرفوا الحقّ إلا التعصّب للرأي، وللجماعة، والشيخ، إذ يعتقد كل أن من يتبعه على صوابٍ فلا يخطىء، وينسى أن لا عصمة في الإسلام لأحد بعد الأنبياء.

لا بدّ من الوضـوح والأخذ من النبـع الأصلي الصـافي كتاب الله وسنة رسوله. ولا بدّ من ترك التعصّب للأفراد والجماعـات، وسؤال أهل العلم، ومحاولة التمييز والمقارنة.

وكما ضاع المسلمون الحريصون على دينهم ضاع غير الحريصين، وهم نسبة لا بأس بها، ولا يمكن إغفالها ـ مع الأسف ـ وجـدير بهم أن يضيعـوا، وأمـر طبيعي أن يتيهـوا وقـد تخلّوا عن عقيـدتهم، وضاعوا في الحزبية، والمصالح وعصبيات القوم، وعصبيـات المنافـع الواحدة والمشتركة، والأهواء والشهوات.

ولعل من أسباب ضياع المسلمين المؤسسـات الصليبية واليهـودية المتعـددة بأسـمائها وعنـاوينها المكشـوفة والمغـطاة، والمخـططات التي تـوضع، والفـرق الباطنيـة التي تعمل بـالسرّ والظاهـرة التي تعمـل بـوحيٍ من أعـداء الإسـلام وهـم الـذين أنشـأوهـا ولا يـزالـون يدعمونها، وهـذه كلها أسبـاب خارجـة عن إرادة المسلمين، ولكن هنـاك أسبـاب تعـود إليهم أنفسهم، فمصـالحهم، وشهـواتهم، والإغراءات التي يُدلي بهـا لهم أعداؤهم، وينـثرونها لهم حتى ينقلبوا إلى بهائم، إلى جبابرةٍ، إلى طغاةٍ يُوجّهون سيـوفهم إلى رقاب أبنـاء عقيدتهم التي ينتمون إليها، وليس دور الجهل، والخرافة، والجـلافة بأقل من ذلك. إذ لا يقبلون رأياً، ولا يعرفون وضعاً، ولا يريـدون أن يتعرّفوا على ما يُرسم لهم ويُخطط.

وأخيراً لا بدّ من إنارة الطريق لهؤلاء الضائعين كي يسلكوا الطريق المستقيمة، وينفضوا عن أعينهم ما سبق أن لحقها من غشاوةٍ، وإذا جدّ الدعاة، وأخلص السائرون في سبيل الله، فإن النصر قادم ـ بإذن الله.

والله نسأل أن يُوفّقنا وأن يُسدّد خطانا لإنارة الدرب، فهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.



الفهرس

الصفحة